

رَشَاقَةُ الَلْفِظِ وَجَزَالَةُ الْمَعْنَى

رِحْلَةٌ فِي هُنْدَسَةِ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ



رَدَّادُ السَّلَامِي

رِشَاقَةُ اللَّفْظِ وَجَزَالَةُ الْمَعْنَى

رِحْلَةٌ فِي هَنْدَسَةِ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

رَدَّادُ السِّ—لَامِيٌّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

حين تكون الكلمة أصغر من مبناها وأكبر من حدودها

لا يُقرأ القرآن كما تُقرأ سائر الكلمات؛ لأن الكلمة فيه ليست وعاءً صامتاً يحمل معنىً ثم ينتهي دوره عند إيصاله، وإنما هي كائنٌ حيٌّ داخل بناءٍ حيٍّ. لها صوتها، وملمسها، وظلُّها، وموضعها الذي لا تستقيم الصورة إلا به. وقد تبدو قليلة الحروف، غير أنها حين تقع في القلب تفتح فيه من الآفاق ما لا تفتحه صفحاتٌ من الكلام.

وقد استخدم العرب الكلمة ذاتها قبل نزول القرآن، وعرفوا أصل معناها، وتداولوها في أسواقهم وأشعارهم وخطبهم؛ ثم جاءت في القرآن فكأنها وُلدت من جديد. لم يغيّر الوحي حروفها، ولكنه أعاد بناء عالمها، ووضعها في سياقٍ منحها من النور والعمق والامتداد ما لم يكن لها من قبل.

كانوا يعرفون «النور»، فلما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تجاوزت الكلمة حدود الضوء المرئي، وصارت باباً إلى معنى الهداية والظهور والتدبير، وإلى افتقار الوجود كله إلى نور الله.

وكانوا يعرفون «السكينة»، فلما أنزلها الله في قلوب المؤمنين، لم تعد مجرد هدوءٍ نفسي، بل غدت قوةً ربانية تمسك القلب حين تهتز الأرض من تحته، وتجعله ثابتاً في موضعٍ تعجز فيه الأسباب عن منحه الثبات.

وكانوا يعرفون «الفلاح»، فلما افتتح الله به سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لم يعد نجاحًا عابرًا في شأنٍ من شؤون الحياة، بل صار نجاةً شاملة، ونضجًا للروح، وبلوغًا للغاية التي من أجلها خلق الإنسان.

وهكذا ينقل القرآن الكلمات من التداول إلى الشهود، ومن سطح الاستعمال إلى أعماق الحقيقة.

إن القرآن لا يكثر من الألفاظ ليعظم المعنى؛ بل ربما ضغط المعاني العظيمة في كلمة واحدة، حتى تكون الكلمة صغيرةً في سطرها، واسعةً في أصدائها. وهذا هو السر الذي نريد الاقتراب منه في هذه الرحلة: كيف تكون الكلمة القرآنية رشيقةً في مبناها، جزلةً في معناها، دقيقةً في موضعها، غنيةً في إيحاءها؟

والرشاقة هنا ليست زينةً لفظية، ولا ترفًا موسيقيًا، ولا خفةً تخلو من القوة. إنها بلوغ المعنى بأصفى لفظ، وأوجز طريق، وأشد تركيب. هي أن تأتي الكلمة فلا تحتاج إلى ما يسندها، وأن تقع في موضعها فلا تقبل أن يزاحمها مرادف، وأن تمرَّ على اللسان خفيفةً ثم تستقرَّ في الروح ثقيلةً بالحقيقة.

وأما الجزالة فليست خشونة الألفاظ ولا غرابتها؛ وإنما هي امتلاء الكلمة بالمعنى، وقوة بنيتها، وهيبتها في السياق، وقدرتها على أن تحمل وراءها ظاهرها طبقاتٍ من الدلالات النفسية والإنسانية والكونية والإيمانية.

قد تكون الكلمة شديدة الرقة، ولكن معناها جليل. وتأمل قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ما أرقَّ النفي، وما أعظم القضية التي يعالجها! إنها تجبر قلب النبي ﷺ، وتدفع عنه وحشة الانقطاع، وتردُّ على شماتة

المتربصين، وتقرر حقيقة العناية الربانية؛ وكل ذلك في جملة قصيرة تنساب كيدٍ حانية تمسح الحزن عن القلب.

وقد تكون الكلمة شديدة الوقع لأن المقام لا يحتمل الرقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾. فليس المقام مقام دخولٍ هادئ، ولا سقوطٍ واحد ينتهي؛ إنما هو انقلابٌ متتابع، وتردٍ يعقبه تردٍ، وإلقاءٌ مهين تتخبط فيه الأجساد والمعبودات والأمال الزائفة. فجاء تكرار المقاطع في «كُبِّبُوا» حاملاً صورة التتابع والاضطراب والانهيار.

فاللفظ القرآني لا يزيّن المعنى من خارجه؛ بل ينشئه في السمع والنفس. إنك تسمع الفعل قبل أن تكتمل دلالاته في ذهنك، فتجد شيئاً من المشهد قد بدأ يتحرك داخلك.

ومع ذلك، فإن هذا الكتاب لن يجعل التشابه الصوتي قاعدةً متكلفة، ولن يُحمّل الحروف ما لا تحتمل، ولن يقطع الكلمة عن سياقها ليستخرج منها أسراراً لا يدل عليها اللسان العربي ولا نظم الآيات. فالقرآن أجلُّ من أن يُخدم بالمبالغة، وأغنى من أن نضيف إليه ما ليس منه.

منهجنا أن نبدأ من المعنى العربي الصحيح، ثم ننظر في السياق، والنظم، واختيار الصيغة، والفارق بين اللفظة وما يقارنها، وما أحدثته من صورة أو شعور، ثم ننقل من ذلك إلى التأمل والهداية. فلا يكون التأمل بديلاً عن المعنى، بل ثمرةً له؛ ولا يكون الجمال انفلاتاً من الدلالة، بل إشرافاً من داخلها.

وسنقف أمام بعض الكلمات كما يقف المرء أمام جوهرة، يديرها في الضوء ليرى وجوهاً مختلفة؛ غير أن تعدد الوجوه لا يعني اختلاف

الحقيقة، بل يكشف ثراءها. وسنقف أمام بعض التراكيب القصيرة التي تحمل مصائر كاملة، ونصغي إلى ألفاظ الرحمة والخوف، والحركة والسكون، والدنيا والآخرة، والنفوس والكون، لنرى كيف يصنع القرآن من الكلمة مشهداً، ومن المشهد شعوراً، ومن الشعور هداية.

لسنا نريد أن نسأل فقط: ماذا تعني هذه الكلمة؟

بل سندسأل أيضاً:

لماذا جاءت هذه الكلمة تحديداً؟

لماذا اختير هذا الفعل دون ما يقاربه؟

ماذا أضافت الصيغة إلى أصل المعنى؟

كيف خدم صوت الكلمة جوَّ الآية؟

ماذا كان سيتراجع من جمال الصورة لو استُبدلت بها كلمة أخرى؟

وكيف تنتقل اللفظة من سياقها الأول إلى حياة الإنسان، فتصف خوفه، وتداوي حزنه، وتكشف غروره، وتفتح له باب الرجاء؟

إن وراء كل كلمة قرآنية نظاماً من العلاقات. فهي متصلة بما قبلها وما بعدها، وبموضوع السورة، وبالمشهد الذي وردت فيه، وبالحالة النفسية للمخاطب، وبالهداية الكلية التي يريد القرآن إنشاءها في الإنسان. ولذلك قد تكون الكلمة معروفة في ذاتها، ولكن سرّها لا يظهر إلا في موقعها.

فالجوهرة لا تكشف جمال التاج وحدها، كما أن التاج يفقد اتزانه إذا نُقلت الجوهرة من موضعها.

ومن هنا، فإن الحديث عن الكلمة القرآنية ليس حديثاً عن المفردة معزولةً عن النظم، بل عن الكلمة حين تصوير جزءاً من قدرها البلاغي؛ حين تجاور أختها، وتستمد منها، وتمنحها، وتتعاون الكلمات جميعاً على إقامة المعنى في أكمل صورة.

هذه رحلةٌ في الدقة التي لا تُرى من النظرة الأولى؛ في الكلمات التي نكررها كثيراً حتى تكاد العادة تحجب عنا دهشتها. سنقترب منها ببطء، وننفذ عنها غبار الألفة، ونسمعها كأنها تقع في القلب أول مرة.

فكم من كلمةٍ مررنا بها، ولو أقمنا عندها قليلاً لأقامت فينا طويلاً.

وكم من لفظةٍ ظننا أننا نعرفها، بينما كنا نعرف معناها القريب، ولم ندخل بعدُ إلى عالمها.

وكم من آيةٍ لم تحتج إلى أن تطول؛ لأن كلمةً واحدةً فيها قالت ما لا تستطيع المطوّلات قوله.

ذلك أن كلام البشر قد يكثر حين يعجز عن إحكام المعنى، أما القرآن فيضع الحقيقة العظيمة في اللفظة المحددة، ثم يمضي، ويترك الكلمة تعمل في الوجود والقلب والتاريخ.

ومن هنا تبدأ رحلتنا: من كلمةٍ تبدو صغيرة، لنكتشف أن بعض الكلمات لا تُقاس بعدد حروفها، بل بمقدار ما تفتحه في الإنسان من أبواب.

الباب الأول

الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَقُومُ غَيْرُهَا مَقَامَهَا

﴿آنَسْتُ﴾: حين لم تكن النار ضوءًا فحسب

يقول الله تعالى في خبر موسى عليه السلام: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

كان يمكن للخبر في ظاهره أن يُروى بكلمة «رأيت»، فقد وقعت النار في مجال بصره. لكن القرآن لم يجعل المسألة رؤيةً بصرية محضة، وإنما قال على لسانه: ﴿آنَسْتُ﴾.

وهنا تفتح الكلمة وراء النار عالمًا من الوحشة.

كان موسى مسافرًا بأهله، والليل يحيط بهم، والطريق لا يمنحهم يقينًا، والبرد يبعث الحاجة إلى الدفء. وفي مثل هذا المقام لا تكون النار مجرد لونٍ يلمع في البعيد؛ إنها علامة حياة، ووعد دفاء، وإشارة إلى وجود من يعرف الطريق. لقد رأى موسى النار بعينه، لكنه استقبلها بحاجته، ولذلك «آنسها».

كأن اللفظة التقطت حالتين في لحظة واحدة: وحشة المكان، والرجاء الذي بعثه الضوء. لو قيل: «رأيت نارا»، لوصل الخبر إلى العقل. أما ﴿آنَسْتُ نَارًا﴾ فتدخلنا إلى قلب المسافر. إنها لا تخبرنا بما وقع أمام عينيه فقط، بل بما تحرك في نفسه عندما رآه.

وهذه من رشاقة الكلمة القرآنية: أن تؤدي الخبر والشعور معاً، فلا يحتاج السياق إلى أن يقول: رأى ناراً فشعر بالأنس ورجا أن يجد عندها هدايةً ودفعاً. لقد جمعت «أنست» كل ذلك في بنائها الهادئ.

لكن وراء الكلمة مفارقةً أجمل: خرج موسى يطلب أنساً من نار الأرض، فإذا الله يختاره لأنس المناجاة. أراد قبساً يدفع به أهله، فعاد يحمل نوراً يهدي به أمة. كان يظن أنه يسير إلى النار، ولم يكن يعلم أن العناية تسوقه إلى النبوة.

كم يجهل الإنسان حقيقة الضوء الذي يلوح له من بعيد!

قد يمضي إلى شيء يظنه حلاً لحاجته الصغيرة، بينما يدبر الله عنده تحوّل حياته كلها. وقد يطلب قبساً للطريق، فيفتح الله له طريق الرسالة. وقد يخرج مدفوعاً بالحاجة، ثم يكتشف أن الحاجة نفسها كانت يدّاً خفية تقوده إلى الموعد الذي لم يكن يعرفه.

وهكذا لا تبقى «أنست» وصفاً لنارٍ شوهدت في ليلة قديمة، بل تصبح كلمة تكشف طريقة العناية في سوق الإنسان إلى أقداره الكبرى: تلوح له الحاجة من جهة، بينما ينتظره الاصطفاء من جهة أخرى.

لقد أنس موسى ناراً، لكن الحقيقة أن الله كان يؤنس قلبه بندائه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

فليس كل أنسٍ فيما نراه، وربما كان الأنس الحقيقي فيمن أراد لنا أن نرى.

الفصل الثاني

﴿فَأَسْرَهَا﴾: حين احتفى الألم بالصمت

يقول الله تعالى في شأن يوسف عليه السلام حين رماه إخوته بما ليس فيه: ﴿قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ﴾.

لم يقل القرآن: فكتمها يوسف، ولا: فأخفاها، مع أن الكتمان والإخفاء قريبان من ظاهر الموقف؛ بل قال: ﴿فَأَسْرَهَا﴾.

والإسرار أعمق من مجرد الامتناع عن الكلام؛ ففيه شيء يوضع في باطن النفس ويحاط به، كأن يوسف تلقى الكلمة الجارحة، ثم أخذها بعيداً عن لسانه، وأودعها حجرة مغلقة في قلبه، حتى لا تتحول آلام الماضي إلى انفجارٍ في الحاضر.

لقد جرحه إخوته مرتين في جملة واحدة: اتهموه بالسرقة، وربطوا التهمة بأخٍ غائب لا يعلمون أنه واقفٌ أمامهم. فتحوا جرح الجب وهم لا يشعرون، وأعادوا إلى قلبه صدى الخيانة الأولى، ثم منحوه . من حيث لا يدرون . القدرة الكاملة على فضحهم والاقتصاص منهم.

كان عزيزاً وهم في مقام الحاجة، وكان يعرفهم وهم له منكرون، وكانت الحقيقة كلها في يده. وما أيسر أن يقول: بل أنتم الذين ألقيتم أخاكم في الجب، وبعتموه بثمن بخس، وعدتم إلى أبيكم بعشاءٍ كاذب!

لكنه لم يقل.

﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾.

هنا تصبح الكلمة القرآنية وصفًا لقوةٍ أخلاقية نادرة: القدرة على ألا تقول كل ما تعرف، وألا تستخدم الحقيقة سلاحًا كلما آذاك أحد، وألا تجعل قدرتك على الرد إذنا بالانتقام.

فليس الصمت دائمًا عجزًا؛ قد يكون امتلاءً بالقوة. وليس كل من امتنع عن الرد فاقداً للحجة؛ ربما كانت حجته أكبر من أن يضعها في خصومة، وكان قلبه أكرم من أن يبدد نُبله في لحظة غضب.

ولذلك لم يكن صمت يوسف فراغًا. لقد أخبرنا القرآن بما دار في نفسه: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. كان يدرك ظلمهم، ويعرف كذبهم، ويحكم على فعلهم حكمًا واضحًا؛ لكنه فصل بين ما يعرفه في باطنه وما يسمح له أن يخرج على لسانه.

وهذا من أدق مراتب تزكية النفس: ألا تكذب على نفسك فتسمي الظلم عدلاً، وألا تستسلم لغضبك فتقول كل ما يثور داخلك. أن تعرف الشر شرًا، ثم تملك الطريقة التي تتعامل بها معه.

إن بعض الناس لا يستطيع أن يحتفظ في نفسه بحقيقةٍ واحدة إذا وجد في إعلانها إيلاماً لمن آلمه. يظن أن الصراحة تبيح له أن يكشف، وأن المظلومية تمنحه حق التجريح. أما يوسف، فقد كان يملك من الحقائق ما يهدم كبرياء إخوته، لكنه كان يعدُّهم . من حيث لا يشعرون . للحظة اعترافٍ أكبر، وتوبةٍ أصدق، وعفوٍ أنقى.

إن الكلمة التي أسَرَّها يوسف يوم الاتهام هي التي مهّدت لجلال كلمته يوم اللقاء: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

فالعفو العظيم لا يولد فجأة؛ إنه يبدأ من مراتٍ كثيرة يملك فيها الإنسان الرد ثم يختار ألا يجرح، ويقدر فيها على الفضيحة ثم يصون، ويجد باب الانتقام مفتوحاً ثم يغلقه ابتغاء وجه الله.

هكذا حملت ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ تاريخاً كاملاً من الألم المنضبط. كلمة قصيرة، ولكن وراءها قلبٌ لم يمنعه الجرح من أن يظل نبياً.

الفصل الثالث

﴿لَا تُثْرِبَ﴾: كلمة أغلقت أبواب الماضي

بعد سنوات الجب، والرق، والغربة، والفتنة، والسجن، وقف إخوة يوسف أمامه وقد سقطت الأقنعة كلها. لم يعد ثمة مجال للإنكار، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

كانت لحظةً يستطيع فيها يوسف أن يسترد طفولته المسروقة كلمةً كلمة، وأن يعدد ما فعلوه به، وأن يجعل اعترافهم بدايةً لمحاكمة طويلة. فالذاكرة ممتلئة، والجراح قديمة، والسلطة في يده، والذين ظلموه واقفون في موضع العجز.

لكن يوسف لم يفتح سجل الماضي، بل أغلقه بكلمتين:

﴿لَا تُثْرِبَ﴾.

والتثريب ليس العقوبة وحدها، بل اللوم والتعير والتذكير بالذنب على وجه الإهانة. فكأن يوسف لم يقل لهم: لن أعاقبكم فقط؛ بل قال: لن أجعل ماضيكم سوطاً أضرب به كرامتكم، ولن أستخرج خطيئتكم كلما أردت أن أذكركم بفضلي عليكم.

هذه مرتبةٌ من العفو أعلى من إسقاط العقوبة؛ لأن بعض الناس يعفو بيده، لكنه يظل يعاقب بلسانه. يترك الانتقام الظاهر، ثم يستبقي للذنب حياةً طويلة في التلميح والتعير واستدعاء الماضي. وإذا اختلف مع من أساء إليه مرةً، أعاد الجريمة الأولى كأنها وقعت الآن.

أما يوسف فأراد لعفوه أن يكون كاملاً؛ لا ألم عقوبة، ولا مذلة توبيخ، ولا خوف من استدعاء الجريمة غداً.

ثم قال: ﴿عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾.

ولفظة ﴿الْيَوْمَ﴾ هنا حدٌّ فاصل بين زمنين؛ ماضٍ كان فيه الجب والقميص الملطخ بالكذب، وحاضر يبدأ فيه الصفح والاجتماع. وكأن يوسف أقام بهذه الكلمة جداراً رحيماً، وترك وراءه كل ما جرى، ثم دعاهم إلى العبور معه نحو حياة جديدة.

وهو لم ينسب الفضل إلى نفسه، بل رفع أبصارهم إلى الله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. لأن العفو الذي يستعرض صاحبه قد يتحول إلى لونٍ مستتر من الإذلال؛ أما يوسف فأشعرهم بأنهم جميعاً فقراء إلى رحمة الله، وأن صفحه عنهم ليس منصباً يتعالى منها، بل باب رجاء يفتحه لهم.

ما أجزل «لا تريب»!

كلمتان خفيفتان، لكنهما حملتا فوقهما ثقل سنين من الظلم. اجتازتا الجب والسوق وبيت العزيز والسجن، ثم وصلتا نقيتين لا تشوبهما مرارة الانتقام.

وهذه هي عظمة الأخلاق حين يربّيها الوحي: ليست القوة أن تحفظ تفاصيل ما فعله الناس بك، بل أن تملك . حين يحين وقت الصفح . الشجاعة التي تدفن بها سلاح الذاكرة.

فالعفو لا يغير الماضي، لكنه يمنع الماضي من تسميم المستقبل.

الفصل الرابع

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: الصبرُ الذي يجمع شتاتَ النفس

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

لم يقل: واصبر، وإنما قال: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾.

والزيادة في المبنى هنا توهم إلى زيادة في المعنى؛ فكأن العبادة لا تحتاج صبرًا عابرًا يؤديه الإنسان مرةً ثم يستريح، وإنما تحتاج أن يستجمع نفسه كلما تفرقت، وأن يحملها على الطريق كلما ثاقلت، وأن يجدد مقاومته لما يجذبه بعيدًا عن الله.

فالاصطبار صبرٌ فيه معالجة ومداومة ومجاهدة. إنه ليس وقوفًا ساكنًا أمام الألم، بل فعلٌ داخلي مستمر؛ تجمع به النفس أطرافها، وتنتزعها من دواعي الكسل والغفلة، ثم تعيدها إلى مقام العبودية.

والعبادة في بدايتها قد تحملها العاطفة، لكن الطريق الطويل لا تقطعه العاطفة وحدها. تأتي أيامٌ يكون القلب فيها مقبلًا، وتأتي أيامٌ يثقل فيها الجسد، ويجف فيها الشعور، وتزدحم الدنيا حول الروح. وهنا يظهر معنى ﴿وَاصْطَبِرْ﴾: لا تجعل فتور الشعور سببًا لترك الطريق؛ فالعبادة عهد، وليست مجرد حالة مزاجية.

وتزداد الكلمة جزالةً حين ننظر إلى ما قبلها: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. إن الذي تُجاهد نفسك لعبادته ليس ربَّ شأنٍ صغير من شؤونك،

بل ربُّ هذا الملك كله. وكأن معرفة عظمة المعبود هي التي تمد العبد بطاقة الاصطبار؛ فمن عرف من يعبد، هان عليه ما يكابده في سبيل عبادته.

ثم قال: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾، لا عليها فقط. وفي اللام معنى الاتجاه والاختصاص؛ كأن الاصطبار كله يُجمع ويُساق إلى غاية واحدة: أن يبقى القلب قائماً بحق الله.

إن النفس تتوزعها مطالب كثيرة، وكل مطلب يريد نصيبه من صبرها وقوتها. تصبر من أجل المال، وتصبر من أجل المكانة، وتصبر طويلاً في سبيل ما تحبه من الدنيا؛ ثم إذا دُعيت إلى العبادة طلبت طريقاً لا مشقة فيه. فجاءت الكلمة لتعيد ترتيب طاقة الإنسان: إذا كنت تبذل صبرك، فاجعل لله أعلاه وأصفاه.

وليس رشاقة ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾ في قلة حروفها وحدها، بل في أنها اختصرت سيرة المؤمن كلها: بدايةً يجاهد فيها نفسه، وطريقاً يستعيد فيه عزمه، وعثراً يقوم بعدها، وفتوراً لا يسمح له أن يقطع حبله بالله.

إن الاستقامة ليست ألا تضعف، بل ألا تجعل ضعفك خاتمة الطريق.

وكلما تناثرت النفس بين أهوائها، نادتها هذه الكلمة لتجتمع:

﴿وَأَصْطَبِرْ﴾.

الفصل الخامس

﴿فَسَيَكْفِيكُمْ﴾: حين اجتمعت الحماية كُلُّها في كلمة

يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تمرُّ كلمة ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ﴾ على اللسان في خفة، ولكنها تحمل في داخلها مشهداً كاملاً: مؤمنين يواجهون خصوماً، وخصوماً يملكون من المكر والعداوة ما يثير الخوف، ومستقبلاً لم تتكشف أحداثه بعد، ووعداً إلهياً يتولى حفظ المؤمنين من شرهم.

لم يقل: سينصرك الله عليهم، ولا: سيمنع عنك أذاهم، ولا: سيصرف كيدهم؛ بل جمع معاني الحفاظ والدفع والنصر والتدبير في كلمة واحدة:

﴿فَسَيَكْفِيكُمْ﴾.

والكفاية أوسع من صورةٍ واحدة من صور النجاة؛ فقد يكفيك الله عدوك بأن يهزمه، وقد يكفيكه بأن يشغله عنك، وقد يرد كيده إلى نحره، وقد يحول بينه وبين مراده، وقد يمنح قلبك من القوة ما يصغر معه تهديده، وقد يجعل ما أَرَادَهُ بِكَ ضَرًّا سَبَبًا في رفعتك.

أنت تعرف الخطر، أما الله فيعرف الطريق الذي يكفيك به شرّه.

وفي بنية الكلمة اجتماعٌ عجيب للأطراف كلها: الوعد في السين، وفعل الكفاية، والمخاطب الذي تنزل عليه الحماية، والأعداء الذين يقع عليهم

أثرها. كأن الجملة طُويت بأسرها داخل فعل واحد، ثم جاء اسم الجلالة بعده ليضع ختم الضمان:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.

ليس الذي يعذك بالكفاية قوَّةً محدودة، ولا صاحبًا قد يريد نصرتك ثم يعجز، ولا سببًا قد يعمل اليوم ويخذلك غدًا؛ إنه الله. ولذلك لا تستمد الكلمة طمأنينتها من معناها وحده، بل من اسم من أسندت إليه الكفاية.

وما أجمل مجيء السين الدالة على الاستقبال؛ لأن الخوف غالبًا يسكن المستقبل. الإنسان لا يرتجف مما وقع وانتهى بقدر ما يرتجف مما يتوقع وقوعه: ماذا سيفعلون؟ كيف سادفعهم؟ من أين سيأتيني الضرر؟ وما الذي يختبئ خلف الأيام؟

فتأتي السين إلى الموضع الذي يسكنه القلق، وتخبر المؤمن أن الله هناك أيضًا. المستقبل الذي تخشاه ليس أرضًا خالية من تدبيره، وما لم يقع بعد قد سبقته كفاية الله علمًا وقدرًا وحكمة.

ثم تختتم الآية باسمين: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. يسمع ما يقولون، ويعلم ما يخفون. يسمع جهر العداوة، ويعلم سرَّ المؤامرة. فلا حاجة إلى أن تبلغك كل كلمة قيلت فيك، ولا أن تنكشف لك كل يدٍ تعمل ضدك؛ لأن من وعدك بالكفاية لا يغيب عنه صوتٌ ولا سريرة.

غير أن الوعد بالكفاية لا يعني ترك الأسباب، ولا يبرر العجز والتهور؛ فالقرآن الذي يملأ القلب بالتوكل هو الذي يدعو إلى الإعداد والحذر والثبات.

لكن الأسباب تبقى في اليد، ولا تتحول إلى إله في القلب. نفعل ما نستطيع، ثم لا نعتقد أن نجاتنا من صنع تدبيرنا وحده.

إن في الحياة خصوماتٍ يستهلك الإنسان عمره وهو يحاول مراقبتها: يتتبع أقوال الناس، ويحصي حركاتهم، ويستبق مكرهم، حتى يصبح عدوّه حاضراً في قلبه أكثر من حضور ربه. فتجيء هذه الكلمة لتردّه إلى موضع الطمأنينة: ليست مهمتك أن تحيط بهم؛ فالله محيط. وليست قوتك في أن تعرف عنهم كل شيء؛ بل في أن يعرف الله كل شيء.

ما أعجبها من كلمة!

حروفٌ قليلة، لكنها تبني حول القلب حصناً:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.

الفصل السادس

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾: التربية التي تجري في حضرة العناية

يقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

ما أرق كلمة ﴿لِتُصْنَعَ﴾، وما أجزل ما وراءها!

إنها لا تتحدث عن حفظ موسى من الغرق فحسب، وإنما عن بناء متدرج لشخصه، وتربية ممتدة لروحه، وإعداد لمستقبل لم يكن أحد من أهل الأرض يراه. فالطفل الذي وُضع في التابوت لم يكن يُنقذ من موت قريب فقط؛ كان يُصنع لحمل رسالة عظيمة.

و«الصنع» غير الحفظ المجرد. قد تحفظ الشيء وتتركه على حاله، أما أن تصنعه فذلك يقتضي عناية بخصائصه، وتدبيراً لمراحل، وتهيئة له ليؤدي الغاية التي أُعدَّ من أجلها. وهكذا كانت حياة موسى: لم تكن أحداثاً متفرقة، بل مراحل في صناعة نبي.

كان إلقاؤه في اليم جزءاً من الصنع.

وكان وصوله إلى بيت فرعون جزءاً من الصنع.

وكان رده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن جزءاً من الصنع.

وكان خروجه إلى مدين، وعيشه بعيداً عن القصور، ورعيه الغنم، ولقاؤه بالرجل الصالح جزءاً من الصنع.

وكانت عودته ليلاً، ورؤيته النار، وسماعه النداء عند الطور تمام الصنع وبداية الرسالة.

نحن نرى كل حادثة منفصلةً حين تقع، أما عناية الله فترى السيرة كاملة. قد نظن أن مرحلة ما أبعدتنا عن الطريق، بينما كانت تعدنا له. وقد نرى التأخير حرماناً، والغربة تمهيداً، والعمل المتواضع انطفاءً؛ ثم يتبين أن الله كان يصوغ في تلك المساحات الخفية ما لا تصوغه الراحة ولا العجلة.

ثم تأتي العبارة: ﴿عَلَى عَيْنِي﴾، وهي تعبيرٌ عن تمام الرعاية والحفظ، نؤمن به كما جاء على الوجه اللائق بجلال الله، من غير تشبيه ولا تكييف. والمعنى يفيض بالقرب والطمأنينة: إن صناعة موسى لم تكن متروكةً للمصادفات، ولم تجر بعيداً عن العناية الربانية؛ بل كان محفوظاً، مرعياً، مسوقاً إلى قدره بعلم الله وتدبيره.

فمن الذي كان يستطيع أن يرى في ذلك الرضيع قائداً سيقف يوماً أمام فرعون؟

أمه رأت طفلها الذي تخشى عليه.

وآل فرعون رأوا رضيعاً ألقاه الماء إلى أيديهم.

وفرعون رأى فرداً ينشأ تحت سلطانه.

لكن الله كان يعلم مَنْ يصنع.

وهنا تفتح الكلمة باباً لفهم أقدار الإنسان. إن بعض صنائع الله فينا تتم في المواضع التي لا نشعر فيها بشيء سوى الألم. ينزعنا من مألوفٍ لأن الرسالة

التي تنتظرنا لا تولد في المألوف، ويمررنا بتجربة قاسية لأن في أرواحنا قوة لا تستيقظ إلا تحت وطأتها، ويؤخر عنا بعض ما نحب لأن اكتمالنا أهم من استعجال رغباتنا.

ليس معنى ذلك أن كل ألم نعرف حكمته، ولا أن الإنسان يستطيع الجزم بسر كل قدر؛ ولكن المؤمن يعلم أن حياته لا تخرج عن علم الله وحكمته، وأن أبواباً من التكوين قد تعمل فيه وهو لا يدركها بعد.

كم من إنسانٍ ظن أن سنواته ضاعت، بينما كانت تصنع فيه شيئاً سيحتاج إليه غداً!

وكم من وحدةٍ علّمتها الاستغناء بالله!

وكم من خذلانٍ أنقذه من التعلق بالخلق!

وكم من محنةٍ كسرت في نفسه ما كان سيهلكه لو بقي!

إن الصنع الإلهي لا يدلل الإنسان دائماً، لكنه يهيئه. وقد لا يعطيه كل ما يريد، لأنه يبني فيه من يكون.

وهكذا تحمل ﴿لِتُصْنَعَ﴾ معنى أبعد من النجاة: إنك لا تُخرج من المحنة كما دخلتها؛ فثمة شيء يتكون فيك خلالها. وإذا كانت عناية الله قد أحاطت بك، فقد يكون ما حسبه تعطيلاً جزءاً من إعدادك، وما ظننته نهايةً طوراً من أطوار البداية.

الفصل السابع

﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ و﴿فَانْفَجَرَتْ﴾: حين تزن الكلمة درجة الحدث

يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾،
ويقول في سورة البقرة: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

الحدث واحد في أصله: عصا تضرب الحجر بإذن الله، وماء يخرج منه
لبنى إسرائيل. لكن التعبير جاء مرةً بـ ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وجاء مرةً بـ ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾.

ليس ذلك تكرارًا مضطربًا، بل دقةً ترصد الحدث في درجتين أو زاويتين
من زواياه. فالانبجاس يدل على ابتداء خروج الماء وظهوره، والانفجار يدل
على اتساعه وكثرته وقوة تدفقه. كأن إحدى الكلمتين تمسك اللحظة الأولى
حين شق الماء طريقه من الحجر، بينما تمسك الأخرى اكتمال المشهد حين
اندفعت العيون وجرى ماؤها.

وهنا نرى أن القرآن لا يختار المعنى العام فقط، بل يختار درجة المعنى.

نحن في كلامنا اليومي قد نضع ألفاظًا كثيرة في مرتبة واحدة: سال الماء،
وخرج، ونبع، وانبجس، وانفجر. أما البيان الدقيق فيدرك أن لكل حركة
مقدارًا وهيئة، وأن الكلمة إذا تجاوزت مقدار الحدث شوّهته، وإذا قصرت
عنه أضعفته.

إن بين الانبجاس والانفجار رحلة الماء من أول الظهور إلى وفرة الجريان.

والعجيب أن اللفظين كلاهما يصوران انقلاب طبيعة المشهد: حجرٌ يُنتظر
منه الجفاف، فإذا الماء ينبع من داخله. إن المعجزة لا تأتي هنا من السماء،

بل تخرج مما يُظن أنه أبعد الأشياء عن الماء. وكأن الآية تردّ الإنسان من أسر العادة إلى سلطان القدرة: أنت تنظر إلى خصائص الأشياء، والله الذي خلق خصائصها قادرٌ أن يجري فضله من حيث لا تتوقع.

كان الحجر صلبًا، والحاجة إلى الماء ملحةً، والمسافة بينهما في حساب البشر بعيدة؛ ثم جاءت ضربة العصا، لا لأنها بذاتها تشق الصخور إلى اثنتي عشرة عيّنًا، ولكن لأنها السبب الذي أُمِر به موسى، وجاء الأمر الإلهي بما لا يقدر عليه السبب وحده.

وهذه لطيفة أخرى في هندسة المعنى: لا يترك المؤمن السبب لأن القدرة لله، ولا يعبد السبب لأن أثره لا يكون إلا بإذن الله. موسى يضرب، والله يفجّر. اليد تؤدي ما أُمِر به، والقدرة الإلهية تخلق النتيجة.

وكلما بدا لك واقعك حجرًا لا ماء فيه، فلا تحصر إمكانات الله فيما تعرفه من طبائع الأشياء. قد يجعل الفرج في قلب الشدة، ويُخرج من الصخرة عيّنًا، ومن الضعف قوة، ومن التيه طريقًا.

غير أن عليك أن تحمل عصاك، وأن تضرب حين يأتيك الأمر؛ فالمعجزة لا تعلّم الإنسان السكون، بل تعلّمه أن يعمل دون أن يحبس قدرة الله داخل حدود عمله.

وهكذا لا يكشف اختلاف اللفظتين عن ثراء العربية وحدها، بل عن ميزان قرآني بالغ الدقة: لكل لحظة كلمتها، ولكل حركة مقدارها، ولكل مشهد اللفظ الذي يقيمه في النفس كما وقع.

الفصل الثامن

﴿فَاقْذِفِيهِ﴾: قسوة اللفظ ورحمته الخفية

يقول الله تعالى لأم موسى: ﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

تتابعت في الآية أفعالٌ شديدة الحركة: ﴿اقْذِفِيهِ﴾، ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾، ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾، ﴿يَأْخُذْهُ﴾.

وكل فعلٍ منها يكاد يزيد قلب الأم اضطرابًا. فالرضيع لا يُقذف، واليم لا يؤتمن، والعدو لا يُرجى عنده الأمان. إن ظاهر الألفاظ يرسم طريقًا من المخاوف المتلاحقة: يد الأم تسلم طفلها إلى التابوت، والتابوت يسلمه إلى الماء، والماء يسلمه إلى الساحل، والساحل يضعه بين يدي العدو.

لكن يداً واحدةً كانت تدير هذا الانتقال كله: يد العناية الإلهية.

جاء فعل ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ حاسمًا؛ لأن لحظة الخوف لا تحتل التردد الطويل. لو ظلت الأم ممسكةً بالتابوت، تضعه ثم تسترده، وتستشير خوفها كل مرة، لانكشف أمرها وجاء جنود فرعون. كان لا بد من فعلٍ يقطع التردد، ويحوّل الإيمان من رجاءٍ في القلب إلى حركةٍ في الواقع.

إن بعض النجاة لا تبدأ بالاحتفاظ بما نحب، بل بتسليمه لله.

وهذا هو الامتحان الذي تختصره الكلمة: هل تثق الأم بالوعد أكثر مما تثق بذراعيها؟ كانت ذراعاها أحنَّ مكانٍ لطفلها، لكنهما لم تكونا أقدر على حفظه من الله. أمرها أن تضعه في موضع الخوف؛ لأن رحمته كانت تنتظره هناك.

ولم يكن اليم الذي يخيفها خارج سلطان الله. فالذي لا يعقل ولا يرحم تلقى في النظم القرآني أمرًا: ﴿فَلْيُلْقِهِ الِّيمُ بِالسَّاحِلِ﴾. كأنه مأمورٌ بأداء أمانة، يحمل الصغير في مساره المحدد، ثم يضعه حيث شاء الله، لا حيث تمضي المصادفات.

حتى العدو الذي سيأخذه لم يكن قادرًا على تجاوز الدور الذي قُدِّرَ له. سيأخذ الطفل بيده، ويربيه في قصره، ويحرس . من حيث لا يدري . الرجل الذي سيقف أمامه برسالة الله.

كم يبدو المشهد متناقضًا في حساب الإنسان: تخاف عليه من فرعون، فتدفعه الأقدار إلى بيت فرعون! لكن الله قد يجعل قلب الخطر نفسه موضع الحماية، ويجند لوليه من يظن أنه قادرٌ على القضاء عليه.

وتكشف الآية عن فارقٍ بين عنف الصورة ورحمة الحقيقة. فالقذف في ظاهره شدة، لكنه هنا عين النجاة. واليم في ظاهره هلاك، لكنه صار مركبًا. وقصر العدو في ظاهره موضع خوف، لكنه غدا مأوى مؤقتًا. وهكذا لا يجوز أن نحكم على أقدار الله من مظهرها الأول؛ فقد تغلف الرحمة نفسها بصورة تخيفنا لأننا لا نرى نهاية الطريق.

لقد قذفت أم موسى رضيعها في اليم، لكنها في الحقيقة ألقته في حفظ الله.

وما كان في حفظ الله لا يضيعه الماء، ولو اجتمعت عليه أمواج الأرض كلها.

الفصل التاسع

﴿وَعِیْضَ الْمَاءِ﴾: كيف ينحسر الطوفانُ في كلمتين؟

يقول الله تعالى في ختام الطوفان: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

هذه آيةٌ لا تصف انحسار الطوفان فحسب، بل تقيم أمام السمع مشهد انتهاء عالمٍ وبداية عالم. وفي وسط هذا الجلال تأتي العبارة القصيرة: ﴿وَعِیْضَ الْمَاءِ﴾.

لم يقل: وأخذ الماء ينقص شيئاً فشيئاً، ولا: وتسرب في تجاويف الأرض، ولا: وانحسر حتى ظهرت اليابسة؛ بل طوى حركةً كونية هائلة في كلمتين.

﴿وَعِیْضَ الْمَاءِ﴾.

في الفعل معنى النقص والذهاب في باطن الأرض. وهو مبني للمجهول؛ لأن المقام لا يحتاج إلى ذكر الفاعل بعد أن سبقه الأمر الإلهي النافذ: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾. لقد صار الكون كله في هيئة المستجيب، والأرض والسماء مأمورتين، والماء خاضعاً، والسفينة منقاداً إلى مستقرها.

كانت المياه قبل لحظات تملأ الأفق، وتتجاوز الحدود التي يعرفها البشر، وتعلو حتى لا يبقى من أسباب النجاة إلا سفينة حملها حفظ الله. ثم جاء الأمر، فانحسر المشهد الهائل في سكونٍ مهيب.

وهنا تتجلى جزالة الإيجاز القرآني: لا يتبع الماء قطرةً قطرة، وإنما يضعك أمام النتيجة كأنها وقعت دفعةً واحدة تحت سلطان الإرادة الإلهية. فحين يقول الله للأرض: ﴿إِبْلَعِي﴾، لا يبقى للماء قرارٌ مستقل، ولا تحتاج القدرة إلى زمنٍ طويل لتدبير ما صنعت.

وتأمل قوله: ﴿مَاءَكِ﴾. أضاف الماء إلى الأرض، فكأنه شيءٌ خرج منها أو صار متعلقًا بها، وقد حان أن تسترده. ثم قال للسماء: ﴿أَقْلِعِي﴾، فجاء الأمر قصيرًا حاسمًا، كأن المطر كان جيشًا مأمورًا فتلقى إشارة التوقف.

لا صخب في ختام الطوفان. الكارثة التي ملأت الدنيا تنتهي بأوامر مقتضبة، لأن ما يبدو للخلق فوق الاحتمال ليس أمام قدرة الله إلا أمرًا مقضيًا.

وفي حياة الإنسان طوفاناتٌ تبدو أثناء وقوعها كأنها لن تنتهي. حين يعلو الحزن، يظن القلب أن اليابسة لن تظهر مرة أخرى. وحين تتكاثر الفتن، يخيل إليه أن العالم قد فقد نظامه. لكنه ينسى أن للماء حدًا لا يتجاوزه إلا بإذن، وأن الذي قال له يومًا: ارتفع، قادرٌ أن يقول له: غُضْ.

ليس كل طوفانٍ ينحسر حين نريد، ولا بالصورة التي نتمنى؛ لكن المؤمن يعلم أن الفوضى لا تخرج عن الملك، وأن ما يعجز عن إيقافه البشر تقف حركته عند كلمةٍ من الله.

وما أكثر ما يطيل خوفنا ما تختصره القدرة!

﴿وَعِيشَ الْمَاءُ﴾: كلمتان تعيدان للوجود هدوءه، وللسفينة قرارها، وللمؤمن يقينه بأن الشدة مهما اتسعت لا تملك أن تؤبد نفسها.

الفصل العاشر

﴿وَاسْتَوَتْ﴾: سَكِينَةُ الْوُصُولِ بَعْدَ اضْطِرَابِ الطَّرِيقِ

بعد أن أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلع، وبعد أن غيض الماء وقضى الأمر، قال تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾.

لم يقل: ووقفت السفينة، ولا: ورسَتْ، مع أن كليهما يصف جانبًا من المشهد؛ بل قال: ﴿وَاسْتَوَتْ﴾.

في الاستواء معنى الاستقرار والاعتدال بعد اضطراب. لقد كانت السفينة تحمل المؤمنين فوق عالمٍ انفلتت فيه المياه من حدودها، تتلقاها الأمواج، ويحيط بها هول المشهد من كل جهة. فلما انتهى القضاء، لم تصل السفينة إلى الجودي وصولًا مضطربًا، بل استوت.

كأنها استعادت توازنها بعد أن استعادت الأرض توازنها.

إن الكلمة لا تخبر عن نهاية الحركة فحسب، بل ترسم هيئة النهاية: ثباتٌ، واطمئنان، واستقرارٌ يناسب نجاتًا تولّاها الله. فالسفينة التي جرت بعنايته لم تُترك عند الختام تتقاذفها المصادفات؛ بل سيقّت إلى موضعها، ثم ثبتت عليه.

وفي الآية تناسقٌ بديع بين الأوامر والنتائج: تبلع الأرض، وتقلع السماء، ويغيض الماء، ويُقضى الأمر، وتستوي السفينة. كل شيء يعود إلى موضعه. وكأن الطوفان لم يكن انفلاتًا من النظام، بل تنفيذًا لقضاء، فلما انتهت وظيفته عاد الكون إلى سكينته.

وقد ينجو الإنسان من المحنة، لكنه يظل مضطرباً بعدها؛ ينتهي الخطر من حوله ولا ينتهي في داخله. يحمل الأمواج معه، ويعيش على اليابسة بقلبٍ ما زال يتوقع الغرق. أما تمام النعمة فليس أن يخرج جسدك من الطوفان فقط، بل أن يستوي قلبك بعده.

وكم نحتاج بعد النجاة إلى كلمة ﴿وَاسْتَوَتْ﴾!

أن تستقر أرواحنا على جودَيِّ اليقين.

أن نكف عن إعادة الغرق في الذاكرة.

أن ندرك أن ما مضى قد قُضي، وأن الله الذي حفظ السفينة فوق الماء قادرٌ على أن يمنحها قراراً فوق الجبل.

غير أن الاستواء لا يمحو قصة الطوفان؛ بل يمنحها معناها. فالذين نزلوا من السفينة لم يكونوا هم الذين صعدوا إليها تماماً. لقد رأوا كيف تسقط حضارةٌ كذبت بالوحي، وكيف تنجو جماعةٌ قليلة لأنها آمنت، وكيف يصبح الخشب المصنوع بأمر الله أعظم أماناً من حصون المكذبين.

هكذا تصنع المحن وعياً جديداً، ثم تأتي لحظة الاستواء لتبدأ الحياة على أساسه.

فلا يكفي أن تمرَّ بالتجربة؛ ينبغي أن تصل إلى معناها.

ولا يكفي أن تتوقف العاصفة؛ ينبغي أن يستقر فيك اليقين الذي كشفت عنه.

﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾: هدوءٌ في اللفظ يليق بلحظةٍ أدّت فيها الفوضى
وظيفتها، ثم سلمت الناجين إلى أرضٍ جديدة.

الفصل الحادي عشر

﴿فَجَاسُوا﴾: حين يدخل الفسادُ إلى قلب الديار

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

لم يقل: فدخلوا الديار، ولا: فمروا فيها، ولا: فاستولوا عليها؛ وإنما قال: ﴿فَجَاسُوا﴾.

وفي الجوس معنى التخلل في المواضع، والتردد خلالها طلبًا واستقصاءً، مع ما يحيط بالسياق من بأسٍ وإفساد. إنها كلمةٌ لا تضع المعتدين عند أطراف المدينة، بل تجعلهم داخل مسالكها، وبين بيوتها، وفي المواضع التي كان أهلها يظنونها بعيدةً عن أيديهم.

لقد وصل أثر الفساد إلى الداخل؛ لأن الفساد نفسه بدأ من الداخل.

وهذه حقيقةٌ قرآنية شديدة الجلال: المجتمعات لا تفقد حمايتها فجأةً من غير مقدمات. قد يبدأ الانهيار خللاً في القيم، واستخفافاً بالحق، واستمراءً للظلم، ثم يظل يتسع في الضمير حتى يظهر يوماً في صورة عدو يجوس خلال الديار.

فالآية لا تقدم التاريخ بوصفه صراع قوةٍ مادية وحدها، بل تربط الظاهر بالباطن، والنتيجة بمقدماتها الأخلاقية. حين يُخَرَّب ميزان الحق داخل الأمة، تصير أسوارها . مهما ارتفعت . عاجزةً عن حماية ما تهدم في روحها.

وكلمة ﴿خِلَالٌ﴾ تزيد المشهد إحاطةً؛ فهم لم يقفوا في جانبٍ معلوم يمكن عزله، بل صاروا بين الديار وفي فجواتها ومسالكها. إنه اختراقٌ كامل، تذوق فيه الجماعة مرارة انكشافها بعد أن ظنت أن القوة الظاهرة تكفيها.

ثم جاءت العبارة: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾. فما وقع لم يكن حادثاً بلا سنن، بل تحققاً لوعيدٍ سبق به العلم الإلهي. ولفظة ﴿مَفْعُولًا﴾ تقطع أوهام التهرب: إذا اكتملت مقدمات السقوط، لم تعد الأمنيات قادرةً على تعطيل نتائجه.

في الكلمة خشونةٌ تناسب المشهد. حتى جرس ﴿فَجَاسُوا﴾ لا يحمل نعومة المرور؛ بل يوحي بحركةٍ قلقيةٍ نافذة، كأن الخطر يفتش زوايا المكان ولا يترك لأهله موضعاً يختبئون فيه.

وهكذا تضعنا الكلمة أمام قانونٍ يتجاوز الحادثة التاريخية: إن الأمن ليس جدراناً فقط؛ بل عدلٌ يحرس الجدران من الداخل. وإن العدو الخارجي قد يجد طريقه حين يكون الفساد الداخلي قد فتح له الأبواب.

ولا يعني ذلك أن كل معتمدٍ بريء أو أن كل مظلومٍ مسؤول عن عدوان ظالمه؛ فالظلم يظل ظلمًا، والمعتدي يحمل وزره كاملاً. لكن الآية في سياقها تعلم الجماعة المخاطبة أن تنظر في علاقتها بعهد الله، وألا تجعل محاسبة العدو ستاراً يحجب عنها محاسبة نفسها.

لقد اختصر القرآن سقوط الحواجز، وانكشاف البيوت، وامتداد يد البأس في كلمة:

﴿فَجَاسُوا﴾.

فإذا فسدت أعماق الأمة، لم تعد مسافة العدو عنها تُقاس بما بينه وبين حدودها، بل بما بقي في داخلها من حق.

الفصل الثاني عشر

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: العى الذي يصنعه الغطاء

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لم يقل: فأعميناهم، وإنما قال: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾.

والغشاوة غطاءٌ يحول بين العين وما أمامها. وهذا الاختيار يصنع صورةً تختلف عن مجرد فقد البصر؛ فالأشياء موجودة، والطريق قائم، والآيات حاضرة، لكن غطاءً أحاط بهم فمنعهم من رؤيتها.

إنهم لا يعيشون في عالمٍ خالٍ من الدلائل؛ بل في نفس العالم الذي يهتدي فيه المؤمنون. الشمس نفسها تطلع، والكون نفسه ينطق، والوحي نفسه يُتلى؛ غير أن القضية ليست دائمًا في غياب النور، بل في الحجاب الذي صنعه النفس بينها وبينه.

وما أثقل العى حين يكون البصر موجودًا!

أن يرى الإنسان الأشياء، ولا يرى دلالتها.

أن يشاهد النعمة، ولا يرى المنعم.

أن يعاين المصائر، ولا يعتبر.

أن تتكرر أمامه الآيات، لكنه يستقبلها بقلبٍ سبق أن قرر ألا يؤمن.

وجاءت الفاء في ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ لتربط أجزاء المشهد سريعاً: سدُّ أمامهم، وسدُّ خلفهم، ثم غشاوةُ تعلوهم؛ فإذا الإنسان محاصرٌ من الجهات التي كان يمكن أن ينفذ منها إلى الحق. لا يرى ما أمامه فيمتدي إلى المستقبل، ولا يعتبر بما خلفه من تاريخ، ولا يرفع عن بصيرته غطاء المكابرة.

ثم جاءت النتيجة: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لم يقل: فلا يبصرون، بل جاء بالضمير: ﴿فَهُمْ﴾، كأن عدم الإبصار قد صار حالاً مستقرّاً فيهم، لا عارضاً سريعاً يزول. لقد تكرر الإعراض حتى صار حجاباً، وتراكم الرفض حتى أصبح عجزاً عن الرؤية.

وهنا يخيفنا اللفظ من أثر الذنب المعرفي؛ فالإنسان قد يرفض الحقيقة مرةً لأنه لا يحب ما تقتضيه، ثم يرفضها ثانيةً دفاعاً عن موقفه الأول، حتى يأتي وقتٌ لا يعود فيه قادراً على رؤيتها كما هي. يبدأ الأمر إرادةً في الإعراض، وينتهي حرماناً من البصيرة.

ليست أخطر الحجب تلك التي يضعها الآخرون أمام عينيك، بل تلك التي تنسجها أهواؤك في داخلك. فقد تطلب النفس دليلاً، لا لتتبعه، بل لتؤجل الاستجابة. وتسأل عن الحقيقة، لا رغبةً فيها، بل بحثاً عن ثغرة تفر منها. وعندئذٍ لا تكون المشكلة في قلة البرهان، وإنما في فساد الجهة التي تستقبله.

إن كلمة ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ تجعلنا نسأل أنفسنا: ما الأغشية التي تتراكم على بصيرتنا؟

هل هي الألفة التي تجعل الآية تمر بلا دهشة؟

أم الهوى الذي لا يقبل من الحق إلا ما يوافقه؟

أم الكبر الذي يرى الرجوع إلى الصواب هزيمة؟

أم الذنب الذي يخشى صاحبه من النور لأنه سيكشف له ما لا يريد تغييره؟

الهداية ليست أن يكون النور موجودًا فقط؛ بل أن يرفع الله عن القلب ما يمنعه من رؤيته.

فكم من عينٍ مفتوحةٍ لا تبصر، وكم من قلبٍ أزال الله غشاه فرأى في آيةٍ واحدة طريقًا إلى الحياة كلها.

الفصل الثالث عشر

﴿اُخْسُتُوا﴾: كلمةٌ تسقط آخرَ أوهام المكابرة

يقول الله تعالى في خطاب أهل النار: ﴿قَالَ اُخْسُتُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

إنها كلمةٌ قصيرة، لكنها من أشد الكلمات وقعًا في مشاهد القيامة: ﴿اُخْسُتُوا﴾.

تقال للإبعاد مع الزجر والإهانة. وقد جاءت هنا بعد سلسلة طويلة من الفرص: عقولٌ مُنحت، ورسُلٌ أُرسلت، وآياتٌ تُليت، وأعمارٌ امتدت، وأبواب توبةٍ ظلت مفتوحة. لكنهم استهزؤوا بالمؤمنين، واتخذوهم سخريًا، وأعرضوا عن الذكر، حتى انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء.

لم تكن قسوة الكلمة بلا مقدمة؛ بل كانت خاتمةً لقسوة اختاروها هم تجاه الحق وأهله.

في الدنيا كانوا يتكلمون كثيرًا: يجادلون، ويسخرون، ويختلقون المعاذير، ويردون كل حجةٍ بحجةٍ موهومة. أما هناك، فعندما انكشفت الحقيقة كاملةً، قيل لهم: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

انتهى زمن الكلام؛ لأن الكلام كانت له قيمة حين كان يمكن أن يقود إلى الإيمان. أما بعد أن صار الغيب شهادة، وأصبحت النار مشاهدة، فلم يعد الاعتراف اختيارًا أخلاقيًا، بل صار اضطرارًا لا ينفع صاحبه.

وما أروع الانتقال من كثرة الجدل إلى الحرمان من الخطاب!

كان بوسع الإنسان في الدنيا أن يقول: رب اغفر لي، فتفتح له أبواب الرحمة. وكان يستطيع أن يرفع حاجته، ويبث شكواه، ويعود مهما أبعدته خطاياها. لكنه إذا أصر حتى جاء الموت، انتقل إلى دارٍ لا تُستأنف فيها الأعمال.

تكشف ﴿اٰخِسْتُوْا﴾ جزالة اللفظ حين يأتي موافقاً لهيبة الحكم. لا مجال هنا للاسترسال؛ كلمة واحدة تحسم الموقف، وتغلق باب الخصومة، وتسقط كل ما بقي من أوهام الاستعلاء.

إنها كلمةٌ ينبغي ألا يمر بها المؤمن وهو يقرأها بلسانه فقط. إنها توقظه إلى كرامة اللحظة التي يعيشها الآن: ما دام يستطيع أن يناجي الله، وأن يستغفره، وأن يبكي بين يديه، فهو في نعمةٍ لا تُقدَّر. ما دام باب الخطاب مفتوحاً، فليملأه بالتوبة قبل أن يأتي يومٌ يكون فيه الصمت حكماً لا اختياراً.

ليس الخوف كله من النار، بل من أن يُحجب العبد عن مخاطبة ربه، وأن ينادي فلا يُؤذن له في مزيد كلام.

لذلك كان من رحمة القرآن أن نقل إلينا هذه الكلمة ونحن لا نزال في دار المهلة؛ كي لا نسمعها هناك.

﴿اٰخِسْتُوْا فِمْهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾: لفظةٌ قليلة الحروف، لكنها تحمل سقوط الكبرياء، وانتهاء الاعتذار، وإغلاق الباب الذي ظل مفتوحاً عمراً كاملاً.

الباب الثاني

حِينَ تُرَى الْمُعَانِي فِي أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ

ليست أصوات الكلمات القرآنية زينةً تُضاف إلى المعنى بعد اكتماله؛ بل كثيرًا ما تدخل في تشكيل المشهد، فتسمع الأذن شيئًا مما تراه المخيلة، وتحس النفس بحركة الحدث قبل أن يستوفي العقل تفاصيله.

غير أن هذا الباب دقيق المسلك؛ فلا يجوز أن تتحول ملاحظة الجرس إلى تكلفٍ يحمّل كل حرفٍ دلالةً مستقلة، أو يجعل الأصوات معجمًا موازيًا لمعجم اللغة. الأصل هو المعنى العربي والسياق، ثم يأتي الصوت منسجمًا معهما، مؤكدًا للصورة أو مقويًا لأثرها.

فالقُرآن لا يختار كلمةً لأنها جميلة الجرس وحده، وإنما لأنها الكلمة التي يلتقي في موضعها صواب المعنى، ودقة الصورة، ونظام السياق، وجمال الإيقاع.

وحين تجتمع هذه العناصر، لا تعود الكلمة خبرًا عن المشهد، بل تصبح جزءًا من وقوعه في النفس.

الفصل الأول

﴿فَكُبِّكُبُوا﴾: السقوط الذي يتكرر في حروفه

يقول الله تعالى: ﴿فَكُبِّكُبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۖ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

لو قيل: فألقوا فيها، لأدَّى أصل الدخول إلى النار. ولو قيل: فسقطوا فيها، لرسم الفعل حركةً واحدة من أعلى إلى أسفل. لكن القرآن قال: ﴿فَكُبِّكُبُوا﴾.

والكُبْكِبَةُ تحمل معنى الإلقاء والانقلاب والتدهور بعضهم على بعض. إنهم لا يدخلون دخولًا منتظمًا، ولا يهبطون هبوطًا يستقرون بعده؛ بل يتقلبون في سقوطٍ متتابع، كأن كل انحدارٍ يفضي إلى انحدار، وكل انقلاب يتلوّه انقلاب.

وتكرار مقطعي الكاف والباء يجعل الكلمة نفسها متحركةً في الفم. لا تمر مستقيمةً هادئةً، بل تتعثر مقاطعها وتتلاحق، فتمنح السمع شيئًا من هيئة التدهور الذي تصفه.

لم يقل القرآن: «كُبُوا» فقط، بل ضاعف بناء الفعل، فكأن زيادة المبنى صوّرت تكرار الحركة وشدتها. وهكذا لم يعد الصوت غلافًا للمعنى؛ بل صار المعنى مسموعًا في حروفه.

ثم تأمل ترتيب المشهد: ﴿هُمُ وَالْغَاوُونَ ۖ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾. تتكدس الجماعات كما تتكدس المقاطع: معبوداتٌ باطلة، وعابدون غاؤون، وجنودٌ ساروا في ركاب إبليس؛ يجمعهم المصير بعد أن جمعهم الضلال.

كان لكل واحدٍ منهم في الدنيا مقامٌ يتعالى به: صنمٌ منصوب، أو زعيمٌ مطاع، أو صاحب شبهة، أو تابعٌ يذوب في الجمع. أما في النار فتسقط الفواصل المصطنعة، ويكسب الجميع في مشهدٍ واحد. لا يبقى للمتبوع هيئته، ولا للتابع عذره، ولا للعدد قوته.

ومن دقائق الكلمة أنها لا تصور سقوط الأجساد وحدها، بل سقوط المقامات والأوهام. كل ما رفعوه في الدنيا يُقلب هناك، وكل ما ظنوه علوًا ينتهي إلى تدهور.

لقد غيّر الشرك ترتيب العالم في نفوسهم؛ رفعوا المخلوق إلى موضع العبادة، وأنزلوا أنفسهم إلى عبودية ما لا يملك نفعًا ولا ضرًا. فجاءت الكبكة لتعيد الأشياء إلى حقيقتها في صورةٍ من الإذلال تناسب انقلاب الموازين الذي صنعه.

إن للباطل زمنًا يبدو فيه ثابتًا، محاطًا بالأتباع، مزينًا بالأسماء الكبيرة. لكنه يحمل في داخله قابلية الانهيار؛ لأنه لم يقم على أصلٍ يمسكه. فإذا جاء يوم الحقيقة لم يحتج سقوطه إلى شرحٍ طويل:

﴿فَكُفُّوا﴾.

كلمةٌ واحدة تسحب الزخارف كلها من تحت أقدامهم، فإذا هم وما عبدوا يتتابعون إلى الهاوية.

الفصل الثاني

﴿دَمْدَمَ﴾: العقوبة حين أطبقت من كل جهة

يقول الله تعالى في شأن ثمود: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

كان التكذيب فعلاً في القلوب والألسنة، ثم تحول إلى عدوانٍ مادي: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾. وحين بلغت الجريمة تمامها، جاءت العقوبة في كلمةٍ تهتز لها الآية:

﴿فَدَمْدَمَ﴾.

في الدمدمة معنى الإهلاك والاستئصال والإطباق، وفي صوت الكلمة ثقلٌ وتكرار يجعل السمع كأنه يتلقى دويًا متلاحقًا. تتكرر الدال والميم فلا تبدو العقوبة ضربةً عابرة، بل قوةً أطبقت عليهم وأحاطت بهم حتى سوت جمعهم في الهلاك.

والعجيب أن الكلمة جاءت متصلةً بالفاء: ﴿فَدَمْدَمَ﴾. لا مسافة في النظم بين استكمال الجريمة وحضور الجزاء. قد تكون هناك مهلةٌ زمنية في الواقع، لكن التعبير القرآني يطوِّها ليظهر الاتصال الأخلاقي بين الفعل وعاقبته. فكأن العذاب خرج من قلب الجريمة نفسها.

ثم قال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾. والعقوبة حين تكون «عليهم» توحى بالإحاطة والعلو والانطباق؛ ليست شيئًا يمر بجانبهم، بل أمرٌ وقع فوقهم فلم يترك لهم منفذًا.

ثم كشف العدل الذي قامت عليه العقوبة: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾.

لم يهلكهم ربهم اعتباراً، ولم تكن القوة الإلهية بطشاً مجرداً من الحكمة؛ وإنما رجعت الدمدمة إلى الذنب الذي أصروا عليه بعد قيام الحجة. هذه الباء الصغيرة تحمل ميزان العدل كله: بما كسبوا، وبسبب ما اختاروا، وبالجرمة التي صنعوها بأيديهم.

وقد جمعهم القرآن في الضمير، مع أن الذي باشر عقر الناقة واحدٌ منهم؛ لأن الجريمة حين تحظى برضا الجماعة، ويحميها صمتها، ويتحول المجرم إلى ذراعٍ لإرادتها المشتركة، لا تبقى فعلاً فردياً خالصاً. قد تمسك يدٌ واحدة بالأداة، لكن قلوباً كثيرة تكون قد شاركتها بالموافقة والتحريض والرضا.

وهذا يخيف المجتمعات التي تظن أنها تنجو من تبعة الشر ما دامت لم تمارسه بأيديها. إن للسكوت عن الجريمة سياقه وحكمه، وللرضا بها أثره، ولتهيئة المناخ الذي يولدها نصيباً من المسؤولية.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَوَّاهَا﴾. زالت الفوارق التي كانوا يتعاضمون بها، وسُوِّيت الديار بمن فيها، وانتهت حضارةٌ كانت تنحت من الجبال بيوتاً آمنة في ظنها. لم تستطع الصخرة التي شكّلوها أن تحميهم من كلمة الله.

كانت بيوتهم منحوتةً بإحكام، لكن الخلل لم يكن في الجدران؛ كان في الضمائر.

وكثيراً ما يظن الإنسان أن متانة البناء تعوّض فساد المعنى، وأن الحضارة إذا أحكمت أدواتها صارت بمنأى عن السقوط. لكن القرآن يقرر أن العمران الذي يعلو خارج الإنسان بينما ينهار الإنسان من الداخل يحمل في أساسه أسباب فناءه.

﴿قَدَمَدَمَ﴾: لم تكن الكلمة وصفاً لصوت العذاب فقط، بل إعلاناً أن الضجيج الذي أحدثه الباطل طويلاً يمكن أن تسكته لحظة واحدة من القضاء.

الفصل الثالث

﴿زُلْزِلَتْ﴾: حين يفقد الثابتُ ثباته

يقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

تبدأ السورة بـ ﴿إِذَا﴾، فتفتح بابًا على حدثٍ آتٍ لا ريب فيه. ثم تأتي كلمة ﴿زُلْزِلَتْ﴾، فتتحرك الآية منذ أول سطر. تتعاقب حروفها ومقاطعها في تكرارٍ يناسب اضطراب الأرض وتردد حركتها.

لم يقل: إذا تحركت الأرض؛ فالحركة قد تكون هادئة، وقد تنتهي دون أن يتغير نظام الأشياء. ولم يقل: إذا رجفت فقط؛ بل جاء بالفعل المضعف المبني الذي يرسم تتابع الاهتزاز وشموله.

﴿زُلْزِلَتْ﴾: كأن اللفظة لا تسمح للسان أن يستقر وهو ينطقها.

والأرض هي رمز الثبات في خبرة الإنسان. إليها يعود إذا اضطرب، وعلمها يبني، وفيها يثبت أقدامه. فإذا زُلْزِلَتِ الأرض نفسها، فأين يطلب الثبات؟ إن القيامة لا تحرك الأشياء القائمة على الأرض فقط، بل تحرك الأصل الذي كانت تقوم عليه الأشياء.

وهنا تتجاوز الكلمة وصف حادثةٍ كونيةٍ إلى زلزلةٍ في وعي الإنسان: كل ما ظننته ثابتًا في الدنيا قابلٌ للاهتزاز، وكل ما استندت إليه من مادةٍ ومكانٍ وسلطانٍ لا يملك لنفسه قرارًا حين يأتي أمر الله.

ثم قال تعالى: ﴿زَلْزَلَهَا﴾، فأضاف الزلزال إلى الأرض. إنه ليس أيّ زلزالٍ مما عرفه البشر، بل زلزالها الذي قُدِّرَ لها، وحركتها الأخيرة التي تُخرجُ بها أثقالها وتعلن انتهاء نظامها المألوف.

كأن لكل أرضٍ في أذهاننا زلازلها المحدودة، أما هذه فلها زلزالها الجامع الذي لا يقاس بما سبقه.

والمصدر بعد الفعل يزيد المشهد تثبيّتًا وتعظيمًا: زُلْزِلَتْ زلزالًا يليق بذلك اليوم، ويستوفي معنى الزلزلة حتى نهايته. فلا يبقى بيتٌ يطمئن إليه صاحبه، ولا جبلٌ يراهن على رسوخه، ولا نظامٌ مادي يواصل عمله كما كان.

لكن السورة لا تقصد أن تملأ القلب برعب المشهد وحده؛ إنها تزلزل داخله الموازين الزائفة قبل أن تتزلزل الأرض خارجه. فالإنسان الذي يقرأها اليوم يستطيع أن يعيد ترتيب حياته باختياره، قبل أن يأتي يومٌ تعيد فيه القيامة ترتيب الأشياء رغماً عنه.

إذا كانت الأرض ستفقد ثباتها، فما الذي ينبغي أن يثبت؟

يثبت الإيمان.

يثبت العمل الصالح.

يثبت ما قدمه الإنسان حتى لو كان ﴿مِنْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

الأرض تهتز، لكن ميزان الله لا يهتز. الأبنية تسقط، لكن الأعمال تبقى. المظاهر تتشقق، لكن الحقيقة تخرج مكتملة.

وهكذا تجعل ﴿زُلْزِلَتْ﴾ القارئ يحس بحركة اليوم الآخر في لسانه، ليقظ بها ما سكن من قلبه. فالزلزلة التي تُقرأ الآن رحمة؛ لأنها تمنعنا من الغفلة عن الزلزلة التي ستقع هناك.

الفصل الرابع

﴿عَسَّسَ﴾: الليلُ بين إقبالٍ وإدبار

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

من الكلمات التي تستوقف السمع قبل أن يستقصي العقل معناها كلمة ﴿عَسَّسَ﴾. حروفها تتكرر في هدوء، وتتحرك في خفاء، كأنها وقع خطوات الليل وهو يقبل أو يدبر.

وقد حملت الكلمة في لسان العرب معنى إقبال الليل، وقيل: إدباره. وهذا الاتساع ملائم لطبيعة الليل نفسه؛ فهو زائرٌ له مجيء وانصراف، يتمدد على الأشياء ثم ينسحب عنها، وتظل حركته في الحالتين خفيةً لا تكاد العين تمسك بدايتها ولا نهايتها.

الليل لا يهجم دائماً دفعةً واحدة؛ يتسلل. يبدأ عند الأطراف، ويخفف ألوان العالم شيئاً فشيئاً، حتى يضم الأشياء إلى عباةته. ثم إذا أدبر، لا ينكسر فجأة، بل يتراجع أمام خيط النور في سكونة.

وقد جمعت ﴿عَسَّسَ﴾ شيئاً من هذه الحركة الموارية. إن تكرر السين بما فيه من همس، وتوسط العين في اللفظة، يمنحانها جرساً يناسب امتداد الظلام وانسلاله، من غير أن نجعل الصوت وحده أصل المعنى.

ثم يأتي بعدها قسمٌ مقابل: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. الليل يعسس، والصبح يتنفس. حركتان كونيتان صُورتا بفعالين يبعثان الحياة في المشهد. ليس الليل

ستارًا جامدًا، ولا الصبح لونًا ساكنًا؛ كلاهما يجري بأمر الله في نظامٍ لا يختل.

والتقابل بين الكلمتين بديع: في ﴿عَسَّسَ﴾ شيءٌ من الخفاء والانقباض، وفي ﴿تَنَفَّسَ﴾ انفتاحٌ وامتداد. كأن الكون كان ممسكًا أنفاسه تحت الليل، فلما جاء الصبح أطلق زفرته الأولى، وانتشر الضوء في آفاقه كما ينتشر الهواء في الصدر.

إن الإنسان المعتاد يرى تعاقب الليل والنهار حتى يفقد إحساسه بالمعجزة. تأتي الآية فتعيد للظاهرة بكارتها: انظر إلى الليل لا بوصفه موعد نومك فقط، بل آيةً تتحرك. وانظر إلى الصبح لا بوصفه رقمًا في الساعة، بل نفسًا يخرج من صدر الوجود.

وربما حمل هذا التعاقب عزاءً خفيًا للقلب: ما دام الليل في حركة، فلا تظنه مقيمًا. حتى حين يشتد سواده، يكون الزمن قد بدأ يأكل من أطرافه. وما دام الصبح يتنفس، فإن الضوء لا يحتاج إلى أن يهجم صახبًا؛ يكفي أن يبدأ، ثم يملأ الآفاق.

قد تمرُّ بالإنسان ليالٍ نفسية يعجز فيها عن رؤية النهاية. تبدو الوحشة ساكنةً، بينما هي . في ميزان الله . تعسَّس؛ مقبلةً إلى حدها أو مدبرةً نحو انقضائها. وليس عليه أن يصنع الصبح بيده، بل أن يثبت حتى يسمع الوجود يتنفس من جديد.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: كلمتان تمنحان الزمن روحًا، وتقولان للقلب إن الظلمة والنور كليهما يتحركان بأمر الله، فلا الليل خالد، ولا الصبح بعيد.

الفصل الخامس

﴿تَنَفَّسَ﴾: حين يفتح الصُّبْحُ رئةَ الوجود

يقول الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

لم يقل: والصبح إذا أضاء، ولا: إذا ظهر، ولا: إذا أقبل؛ مع أن هذه الألفاظ تؤدي جانباً من المعنى. لكنه قال: ﴿تَنَفَّسَ﴾.

فجأةً يتحول الصبح من زمنٍ إلى كائنٍ حي، ويصير الضوء نَفْسًا ممتدًا في صدر الكون. كأن الليل كان يضغط على الأشياء، ويحبس ألوانها وملامحها، ثم جاء الفجر فارتفعت تلك القبضة قليلاً قليلاً، وبدأ الوجود يسترد أنفاسه.

والتنفس لا يقع دفعةً واحدة، بل يتدرج. وكذلك الصبح لا يسكب نوره على العالم في لحظة، وإنما يرسل خيطه الأول، ثم يتسع، ثم تتضح به الأشياء. وفي اختيار الفعل تصويرٌ دقيق لهذه الحركة الهادئة: النور لا يقتحم الكون، بل ينساب فيه.

وكأنك تسمع في السينات المتتابعة همس الهواء وهو يمر، وتحس في امتداد الكلمة بشيءٍ من اتساع الضوء. لا تكاد تنطق ﴿تَنَفَّسَ﴾ حتى تستحضر صدرًا كان منقبضًا ثم انفتح.

وهذا من عجائب البيان: أن يستعير من الإنسان فعله الخفي، ثم يرده إلى الكون صورةً واسعة. فالإنسان يتنفس في مساحة صدره، والصبح يتنفس في مساحة العالم. ذلك النفس الصغير فيك، وهذا النفس العظيم في الأفق، كلاهما

آيةٌ من تقدير الله الذي جعل الحياة مرتبطةً بحركةٍ لا نملك الاستغناء عنها لحظة.

ولأن الصبح يتنفس، فإنه لا يبدد ظلمة الخارج وحدها؛ بل يوقظ في الروح معنى الانفراج. كم من مهمومٍ رأى الفجر فشعر أن العالم يمنحه فرصةً أخرى! وكم من قلبٍ استبد به الليل، فلما أضاءت أطراف السماء أحس أن الضيق ليس قدرًا أبدًا!

إن الليل يبالغ في إقناعنا أن لا شيء بعده. يغلق المشهد، ويخفي المسافات، ويجعل القريب مجهولًا. ثم يتنفس الصبح، فإذا ما أخفته الظلمة لم يكن معدومًا؛ كان موجودًا ينتظر النور الذي يكشفه.

وكذلك بعض الحقائق في حياة الإنسان: لا يغيب وجودها حين يعجز عن رؤيتها. قد تكون الرحمة حوله، لكن حزن الليل يحجبها. وقد يكون الفرج قد بدأ في جهةٍ لا يراها، كما يبدأ الفجر وراء الأفق قبل أن يبلغ نوره العين.

وتدل صيغة ﴿تَنَفَّسَ﴾ على حركةٍ تقع من داخل المشهد، كأن الضوء ينبثق من جوف الصبح نفسه. وهذه الصورة تجعل الفجر ميلادًا، لا مجرد انتقالٍ زمني. فالكون لا يستقبل يومًا جديدًا فحسب؛ إنه يسترد حياةً جديدة.

ولذلك كان الفجر وقتًا يليق بالقرآن والصلاة والذكر؛ ففيه يتنفس العالم، ويتميأ القلب لأن يتنفس معه. ومن نام عن كل فجرٍ في حياته فقد لا يفوته ضوءٌ مرئي فحسب، بل تفوته لحظةٌ يتجلى فيها معنى البعث اليومي: تموت الأشياء في ظلمة السكون، ثم تعود إلى الحركة واللون والصوت.

﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

ثلاث كلمات، ولكنها تجعلنا نرى النور وهو يولد، ونسمع الحياة وهي
تعود، ونوقن أن ما دام لله صبحٌ يرسله، فلا ينبغي للقلب أن يسلم نفسه إلى
ظلمةٍ عابرة.

الفصل السادس

﴿الصَّاحَّةُ﴾: الصوتُ الذي يصمُّ ما سواه

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ۖ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ ۚ﴾.

لم يسم القرآن القيامة هنا باسمٍ يصف زمنها فقط، وإنما سمّاها ﴿الصَّاحَّةُ﴾.

إنها الصيحة الشديدة التي تصحُّ الأسماع، فتغلب كل صوتٍ سواها. والكلمة في ذاتها ذات جرسٍ صادم؛ تبدأ بصادٍ ممتلئة، ثم يتبعها تشديد الخاء، فكأن اللفظ يدفع السمع دفْعًا، ولا يسمح له أن يبقى هادئًا أمامه.

إن أخبار الدنيا مهما ارتفعت أصواتها تترك للإنسان مجالًا أن يلتفت إلى غيرها. أما الصاخة فتأتي فتقطع الصلات بالمألوف، وتملأ الوعي بحقيقةٍ واحدة: لقد انتهى زمن الانشغال، وحضر يوم الحساب.

ولهذا جاء بعدها مباشرة مشهد الفرار من أقرب الناس. ليس لأن روابط الأخوة والأمومة والأبوة والزوجية والبنوة كانت بلا قيمة، بل لأن هول ذلك اليوم يستغرق كل نفسٍ في مصيرها: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وتساعد ترتيب الأقربين يضاعف الوقع النفسي. يبدأ بالأخ، ثم الأم والأب، ثم صاحبة البنين. كل دائرة كان الإنسان يحتمي بها في الدنيا تنفرط تحت ضغط الحقيقة الفردية. فالمرء يقف أمام الله لا يحمل اسمَه العائلي، ولا يختبئ في جمعه، ولا توزع تبعته على من أحبهم أو أحبوه.

إن ﴿الصَّاحَّةُ﴾ لا تصمُّ الأذن عن الأصوات فقط، بل تصمُّ النفس عن شواغلها القديمة. لا مالٌ ينادي صاحبه فيسمعه، ولا مكانةٌ تحفظ له صورته، ولا خصومةٌ تملك أن تستدرجه بعيداً عن شأنه الأكبر. الصوت الذي كان يتجاهله في الدنيا. صوت الإنذار. صار هناك حقيقةً تغلب كل شيء.

وقد كانت الآيات تأتيه في هدوء، وكان الواعظ يذكره، وكان الموت يمر بجواره في جنازات الآخرين؛ لكنه استطاع أن يؤجل الاستماع. أما يوم الصاخة فلا يملك أن يؤجل، ولا أن يخفض الصوت، ولا أن يخرج من المشهد.

وهنا تظهر رحمة القرآن في تسميته يوم القيامة بهذه الكلمة الآن. إنه يريد أن يصحَّ غفلتنا قبل أن تصحَّ أسماعنا القيامة. يريد للكلمة أن توقظنا ونحن نملك التوبة والعمل، لا أن تفزعنا فقط حين ينتهي زمنهما.

ما أكثر الأصوات التي تصخب في حياتنا، وما أقل ما يستحق منها أن يحتل القلب! ضجيج الأخبار، وجدالات الناس، ومدائحهم وشتائمهم، ومنافساتهم الصغيرة؛ كلها تبدو عظيمة لأننا نسمعها من قرب. فإذا حضرت الصاخة اتضح أنها كانت همساً عابراً أمام صوت المصير.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾: كلمةٌ لا تصف صوت القيامة فحسب، بل تعيد ترتيب ما ينبغي لنا أن نصغي إليه قبل مجيئها.

الفصل السابع

﴿الطَّامَّةُ﴾: حين يعلو الحدث فوق كل حدث

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾.

الطَّامَّةُ هي الداهية العظيمة التي تعلو ما سواها وتغمرها. وقد جاءت الكلمة بثقلها الصوتي والمعنوي لتصف حدثًا لا يبقى إلى جانبه حدثٌ قادرٌ على الاحتفاظ بضخامته.

كم من أمرٍ يطغى على شعور الإنسان في الدنيا حتى يظنه النهاية: خسارة مالية، أو انكسارٌ اجتماعي، أو سقوط منصب، أو انتصار خصم. تضيق به النفس حتى لا ترى وراءه شيئًا. ثم تأتي ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ لتضع كل طامات الدنيا في أحجامها الحقيقية.

هناك حدثٌ أكبر؛ لا لأنه أشد ألمًا فحسب، بل لأنه يكشف الحقيقة النهائية التي لا يعقبها إمكان التصحيح.

وجاءت «الطامة» معرفةً، ثم وُصفت بـ ﴿الْكُبْرَى﴾، مع أن معنى الطامة يحمل العظمة في أصله. كأن الوصف يزيدُها تفرّدًا: إنها الطامة التي لا تساويها طامة، والواقعة التي تطمُّ ما قبلها، فيصغر عندها كل ما كان يشغل الإنسان.

ولم يقل السياق بعدها: يوم يرى الإنسان ما سعى، بل قال: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.

كانت الأعمال مسجلة، لكنها غابت عن وعيه. فعلها ثم مضى، ونسي الكلمة التي آدت، والنظرة التي خانت، والحق الذي ضيع، والخير الذي أجّل. فلما جاءت الطامة عادت الذاكرة كاملة، لا لتمنحه فرصة الإصلاح، بل ليعرف أن مصيره لم يُنَّ خارج اختياره.

وما أدق لفظ ﴿سَعَى﴾؛ فهو لا يشير إلى الأفعال المنفردة وحدها، بل إلى اتجاه العمر كله. ما الذي كان الإنسان يسير نحوه؟ لأي غايةٍ أنفق قوته؟ وما القضية التي تحولت أيامه إلى خطواتٍ في سبيلها؟

في الدنيا قد يصف الإنسان نفسه بما يتمنى أن يكونه، أما في الآخرة فيعرّفه سعيه. تسقط الشعارات، ويبقى الطريق الذي قطعه قدماه بالفعل.

ثم قال: ﴿وَبُرِّرَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾. كانت غيبًا يُكذَّب به أو يُغفل عنه، فأظهرت إظهارًا لا يترك مجالًا للتأويل. وجاءت عبارة ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ كأن الرؤية وحدها كافية؛ لا يحتاج المشهد إلى شرح، فقد صارت الحقيقة بارزةً أمام العين.

إن وقع ﴿الطَّامَةُ﴾ في السمع يوافق شمولها؛ فالتاء المشددة، والألف الممتدة، والميم المشددة، ثم النهاية المغلقة، تجعل الكلمة ثقيلةً لا تمر مرورًا خفيفًا. إنها تصل إلى الأذن كما يصل الحدث إلى الوجود: غالبًا، محيطًا، حاسمًا.

غير أن المقصود ليس أن يعيش المؤمن مذعورًا بلا رجاء، بل أن يمنح كل حدثٍ دينوي حجمه، وألا يسمح للمصائب الصغيرة أن تحجبه عن القضية الكبرى. من تذكر الطامة لم تهزمه طامات الناس، ومن عرف أن وراء اليوم حسابًا لم يبيع آخرته ليصلح صورةً مؤقتة من دنياه.

إن أعظم ما تفعله الكلمة أنها تحرر الإنسان من الاستغراق في العاجل؛
تضع أمامه «الكبرى»، كي لا يفني قلبه في الأشياء الصغرى.

الفصل الثامن

﴿الْحَاقَّةُ﴾: الحقيقة التي تحقق على الجميع

يقول الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

تفتتح السورة بكلمة واحدة:

﴿الْحَاقَّةُ﴾.

لا فعل قبلها، ولا وصف يمهّد لها، ولا خبر يخفف من وقع حضورها. تُلقى الكلمة وحدها، فتقف أمام السامع كأنها الحدث نفسه قد دخل عليه بلا استئذان.

والحاقة من حقّ الشيء إذا ثبت ووجب، وهي التي يتحقق فيها الوعد والوعيد، وتحق فيها الحقائق، ويحق فيها الجزاء على أهله. سميت بهذا الاسم لأنها اليوم الذي لا يبقى فيه للباطل مجالٌ ليستر الحقيقة، ولا للشك قدرةً على تأجيل اليقين.

ثم يأتي السؤال: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾.

ليس سؤال من يجهل الجواب، بل سؤال تعظيم وتهويل؛ يفتح في النفس فراغاً لا يملؤه تصورها المعتاد. كأن المعنى: أي شيء هي؟ وأي هول تبلغ؟ وأي ميزان من موازين الدنيا يستطيع أن يقدرها؟

ثم يرتفع التعبير درجةً أخرى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾. إن علم الإنسان المحصور بتجاربه لا يستطيع وحده أن يبلغ حقيقة ذلك اليوم. فلا الطوفان

الذي رآه البشر، ولا الصيحة، ولا سقوط الأمم، ولا لحظات الموت، تستطيع أن تمنحه الصورة الكاملة. لا يعرفها إلا بالخبر الذي يأتيه من الله.

وتكرار الكلمة ثلاث مرات لا يبدد هيبتها، بل يضاعفها. في المرة الأولى تحضر، وفي الثانية تثير السؤال، وفي الثالثة تكشف عجز الإدراك عن الإحاطة بها. وكأن القارئ يقترب منها، ثم يكتشف في كل اقترابٍ أنها أعظم.

وفي جرس ﴿الْحَاقَّةُ﴾ قوةٌ تناسب القطع والثبوت. الحاء تفتح مجرى النفس، ثم تأتي القاف مشددةً فتحسمه، كأن اللفظة نفسها تنتقل من انفتاح السؤال إلى صلابة الحكم.

وفي الدنيا باطلٌ كثير يلبس ثياب الحقيقة. يصنع لنفسه منابر، ويرفع صوته، ويجمع حوله الشهود المزيّفين، حتى يخيل للناس أنه الثابت الذي لا يزول. وفي الدنيا حقٌّ قد يبدو ضعيفًا، يحمله فردٌ وحيد، أو جماعةٌ مستضعفة، ولا تحيط به زخارف القوة.

ثم تأتي الحاقة.

هناك لا يُقاس الحق بعدد أتباعه، ولا الباطل بمقدار نفوذه. ينكشف الغطاء، ويحقُّ ما أخبر الله به، ويرى كل إنسان وزن ما قدّم.

إنها لا تجعل اليوم الآخر حقًا فقط؛ بل تجعل كل حقيقةٍ في موضعها: يظهر المؤمن بإيمانه، والمنافق بنفاقه، والمظلوم بحقه، والظالم بجريته، والعمل الخفي بقيمته، والادعاء الفارغ بفراغه.

ولهذا كانت ﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسمًا يملأ القلب بالعدل بقدر ما يملؤه بالرهبة. فالعالم الذي تختلط فيه الموازين لن يبقى كذلك إلى الأبد. وراءه يومٌ تُنتزع فيه الحقيقة من أيدي المتلاعبين، ويصدر تعريفها من رب العالمين.

ثلاث مرات تتكرر الكلمة، كأنها تدق على جدار الغفلة:

﴿الْحَاقَّةُ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾.

فلا شيء أحقُّ بأن يُستعد له من اليوم الذي يحق فيه كل شيء.

الفصل التاسع

﴿الْقَارِعَةُ﴾: الحقيقة حين تقرر أبواب الغافلين

يقول الله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۚ مَا الْقَارِعَةُ ۚ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

مرةً أخرى تبدأ السورة باسمٍ مفرد، لا يحتاج إلى فعلٍ يحمله، ولا إلى مقدمة تقود إليه:

﴿الْقَارِعَةُ﴾.

والقرع هو الضرب الشديد الذي يصيب بصدمة صوته، ويوقظ السمع من سكونه. وسميت القيامة قارعةً لأنها تقرر القلوب بهولها، والأسماع بأصواتها، ونظام العالم بانقلابها، والغافلين بالحقيقة التي طالما مرت على أبوابهم فلم يفتحوها.

وفي جرس الكلمة نفسها شيءٌ من فعلها. تبدأ بقافٍ قوية، ثم تمتد الألف لحظةً، ويأتي بعدها الراء والعين، فتبدو اللفظة كطرفةٍ يتبعها رجوعها في النفس. إنها لا تخبرك عن القرع من بعيد، بل تضع أثره في سمعك وأنت تنطقها.

ثم يتكرر الاسم: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾.

كأن الطريقة الأولى لم تكن كافيةً لإيقاظ القلب، فجاء السؤال طريقةً ثانية. ثم تأتي الثالثة: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، فتجاوز مجرد التنبيه إلى بيان عجز التصور البشري عن الإحاطة بهول ذلك اليوم.

إن التكرار هنا ليس إعادةً للمعنى، بل تصعيدٌ له. في الأولى تسمع الاسم، وفي الثانية تواجه ضخامة المسعى، وفي الثالثة تدرك أن ما تتخيله أدنى من حقيقته.

ثم تبدأ السورة برسم آثار القرعة الكبرى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

الناس الذين كانوا ينتظمون في قبائل ودول وجيوش ومؤسسات يصيرون كالفراش المبعوث: كثرةً بلا نظام، وحركةً بلا وجهة، واضطرابٌ لا يملك أحدٌ فيه أن يقود أحدًا. والجبال التي كانت مثال الثبات تصير كالصوف المنفوش، خفيفةً متطايرةً بعد أن كانت تضرب في الأرض بجذورها.

إن القارعة لا تقرع آذان البشر وحدها؛ بل تقرع تصوراتهم عن القوة والثبات. فالجموع تفقد نظامها، والجبال تفقد رسوخها، ولا يبقى ثابتًا إلا الميزان الذي يقيمه الله.

ولهذا انتقلت السورة سريعًا من مشهد الكون إلى وزن العمل: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

تخف الجبال، وتثقل الأعمال الصالحة.

يتبدد ما كان الناس يرونه عظيمًا، ويبقى ما كانوا يمرون به مستخفين: سجدةً في الخفاء، وكلمة حق، ودمعة توبة، ورحمةٌ بضعيف، وأمانةٌ لم يشهدها أحد. أشياء بدت خفيفةً في مقاييس الدنيا، فإذا بها تثقل في ميزان الآخرة.

وفي الجهة الأخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٥٠ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾. قد يكون صاحبها قد عاش محاطاً بالألقاب والأموال والأتباع، لكنه يصل إلى الميزان خفيفاً؛ لأن الزينة التي ملأت حياته لم تتحول إلى قيمة باقية.

إن ﴿الْقَارِعَةَ﴾ ٥١ تقررنا بسؤالٍ واحد: ماذا سيبقى ثقیلاً عندما يخف كل ما ظنناه ثقیلاً؟

والعاقل لا ينتظر القرعة الأخيرة حتى يستيقظ؛ تكفيه قرعة الآية.

الفصل العاشر

﴿زُحْزِحَ﴾: النجاة التي تأتي بعد اقتراب الخطر

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

لم يقل: فمن أبعد عن النار، مع أن الإبعاد يؤدي أصل المعنى؛ وإنما قال: ﴿زُحْزِحَ﴾.

وفي الزحزحة معنى التنحية والإبعاد شيئاً فشيئاً عن موضع الخطر. وتكرار مقطعي الزاي والحاء يجعل الكلمة نفسها تحمل هيئة الدفع المتتابع، كأن العبد قريبٌ من النار، ثم تدركه رحمة الله فتباعد بينه وبينها، مرحلةً بعد مرحلة، حتى ينجو.

إنها كلمةٌ تخلص من الترف. لا تجعل النجاة أمراً هيناً يُنال بلا خوف، بل تضع الإنسان عند حافة المصير، ليعرف مقدار الرحمة التي يحتاج إليها. فما أحدٌ يدخل الجنة مستغنياً بعمله عن فضل الله، ولا أحدٌ ينجو لأنه استطاع وحده أن يضمن لنفسه العاقبة.

وقد بُني الفعل للمجهول: ﴿زُحْزِحَ﴾، فتوجّه النظر إلى فعل النجاة نفسه وهوله، مع العلم بأن المنجي هو الله. كأن العبد في تلك اللحظة لا يملك إلا أن يقع عليه الفضل، وأن تتلقاه الرحمة، بعد أن انتهى زمن السعي ولم يبق إلا ظهور نتيجته.

ثم لم تكتف الآية بالزحزحة عن النار، بل قالت: ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾.

فالنَّجاةُ في التَّصوُّرِ القرآني ليست فراغاً بين عذابين، ولا مجرد إفلاتٍ من الهلاك؛ إنها انتقالٌ من أبعد مواضع الخوف إلى أكمل منازل الأمن. إبعادٌ عن النار، ثم إدخالٌ إلى الجنة. إزالةٌ للشر، ثم إسباغٌ للنعمة. وهذا تمام الرحمة؛ ألا ينقذك الله مما تخاف فقط، بل يبلغ بك ما ترجو.

ثم يأتي الحكم الجامع: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾.

إن كلمة ﴿فَازَ﴾ تعيد تعريف النجاح كله. قد يفوز إنسانٌ بمالٍ ثم يتركه، أو بمنصبٍ ثم يُزْعَ منه، أو بمدحٍ ينقلب عند أول تغيرٍ في أهواء الناس. أما الفوز الذي استحق أن يثبت له القرآن الحقيقة الكاملة فهو أن ينجو الإنسان من النار ويدخل الجنة.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾: كأن كل فوزٍ لا ينتهي إلى هذه الغاية يظل ناقصاً، مهما بدا لامتعاً في أعين الخلق.

وفي ذلك تحريراً للقلب من مقاييس المنافسة المرهقة. فليس السؤال الأخير: هل سبقت غيرك في متاع الدنيا؟ بل: هل زُحِزحت عن النار؟ وليس المجد أن يعرف الناس اسمك، بل أن تتلقاك رحمة الله يوم تتساقط الأسماء والألقاب.

إن جرس ﴿زُحِزَحَ﴾ بما فيه من تكرارٍ يناسب المعنى الذي يوقظ القلب: الطريق إلى النجاة يحتاج مجاهدةً متجددةً؛ تبتعد عن ذنبٍ ثم تجذبك النفس إليه، فتزحزحها عنه مرةً أخرى. وتقترب منك فتنة، فتدفع قلبك بعيداً عنها. وكأن زحزحة الآخرة تسبقها زحزحاتٌ في الدنيا: عن الشهوة، والكبر، والظلم، والغفلة.

كل توبةٍ صادقة خطوةٌ بعيداً عن النار.

وكل طاعةٍ خفيةٍ مسافةٌ نحو الجنة.

وكل مرةٍ تقاوم فيها ما يغضب الله، فإنك تطلب منه أن يتم لك يوم القيامة
أعظم زحزحة.

الفصل الحادي عشر

﴿دُكَّتَا﴾: حين تهاوى صلابَةُ الأرض والجبال

يقول الله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.

الأرض والجبال هما أعظم ما يراه الإنسان من صور الثبات المادي. الأرض تحمل حياته كلها، والجبال ترتفع أمامه كأنها تعريف الصلابة والرسوخ. ثم تأتي القيامة، فيجتمع الاثنان في ضمير المثنى:

﴿فَدُكَّتَا﴾.

كأن الأرض بامتدادها والجبال بضخامتها صارتا شيئاً واحداً أمام القدرة الإلهية، ثم وقعت عليهما دكةٌ واحدة.

والدك هو الضرب والتسوية والتفتيت. وفي الكلمة قصرٌ وشدة، تبدأ بالدال وتنتهي بالكاف المشددة، فكأن اللفظة نفسها ضربةً حاسمة. لا استطالة فيها تناسب التدرج، بل وقعٌ سريع يلائم فعلاً يزيل في لحظةٍ ما عاش الإنسان يتصوره أبدياً.

ثم جاء المصدر: ﴿دَكَّةً﴾، ليؤكد الفعل ويعظم أثره، ثم وُصفت بـ ﴿وَاحِدَةً﴾.

واحدة فقط.

لا تحتاج قدرة الله إلى ضرباتٍ متلاحقة لتفتيت الجبال، ولا إلى محاولاتٍ حتى تغيّر هيئة الأرض. ما يراه الإنسان أعظم من أن يُزحج، تنهي صورته المألوفة دكةً واحدة.

إن كلمة ﴿وَاحِدَةً﴾ هنا لا تقل رهبةً عن كلمة ﴿دَكَّةً﴾؛ لأنها تكشف الفارق بين عظمة المخلوق في أعيننا، وهوانه أمام أمر الخالق. الجبال عظيمةٌ بالنسبة إلى الإنسان، لكنها ليست عظيمةً على الله.

وهذا المشهد لا يريد أن يصغر الجبال في الحس وحده، بل أن يصغر كل ما يتخذ الإنسان جبلاً في قلبه. كم من قوةٍ بشرية تبدو له عصيَّةً على الزوال! وكم من ظالمٍ تحيط به الأدوات حتى يظن الناس أن سلطانه صار جزءاً من طبيعة العالم! وكم من نظامٍ فاسد يقدم نفسه كأنه قدرٌ لا يتغير!

لكن الذي يدك الأرض والجبال دكةً واحدة لا يعجزه شيءٌ مما شاده البشر.

لقد استعار الطغاة دائماً من الجبل صورته: الارتفاع، والصلابة، وإشعار الآخرين بالصغر. لكن القرآن يردُّ الجبل نفسه إلى حقيقته: مخلوقٌ ينتظر الأمر. فإذا كان الأصل الذي استعيرت منه القوة سيُدك، فكيف بمن استعان بصورته ليخدع الناس؟

وفي مقابل هذا الانهيار المادي، يبقى للإنسان ما قدّم. فلا الأرض التي ملكها تنفعه، ولا الجبال التي احتوى بها، ولا الأبنية التي رفعها. الأشياء الضخمة حوله تتفتت، ويقف هو أمام عملٍ ربما استصغره يوماً.

إن القيامة لا تهدم العالم فحسب؛ بل تهدم سوء تقدير الإنسان للعالم.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾: جملةٌ قصيرة تسقط غرور المادة، وتخبر القلب أن الثبات الحقيقي ليس فيما تقوم عليه قدماه، بل فيما يقوم عليه إيمانه.

الفصل الثاني عشر

﴿نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾: النداء الذي لا يتخلف عنه أحد

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۖ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۚ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

النقر في أصله ضربٌ يحدث صوتًا، والناقور هو الصور الذي يُنفخ فيه. لكن التعبير لم يأتِ بالفعل المألوف وحده، بل قال: ﴿نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، فتجاورت الكلمتان من أصلٍ صوتي متقارب، وكأن العبارة نفسها تحدث في السمع قرعًا يوقظه.

تتكرر النون والقاف والراء بين الفعل والاسم: ﴿نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾. وهذا التآلف لا يبدو زخرفاً منفصلة، بل يوافق مشهد النداء الكوني الذي يبلغ الخلق جميعاً، ويعلن انتقال الوجود من حالٍ إلى حال.

إن نداءات الدنيا متفاوتة؛ قد يسمعها القريب دون البعيد، ويستجيب لها قومٌ ويتخلف آخرون، ويستطيع الإنسان أن يغلق أذنه أو يختبئ من صاحبها. أما ذلك النداء فلا تحده مسافة، ولا يمنعه جدار، ولا يملك ميتٌ أن يتأخر عنه.

إنه الصوت الذي يستدعي التاريخ كله.

الأجيال التي ملأت الأرض ثم غابت، والأسماء التي بقي منها ما بقي ونُسي أكثرها، والأجساد التي تفرقت عناصرها؛ كلها تقوم عند النداء. لا يحتاج كل إنسان إلى من يوقظه باسمه، فالأمر الواحد يبلغهم جميعاً.

وجاء الفعل مبنياً للمجهول: ﴿نُقِرَ﴾؛ لأن المقصود توجيه الوعي إلى الحدث وهوله، لا إلى تعيين من يباشره. وما إن يقع حتى تأتي النتيجة: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

تكرار «يوم» يثبت ثقل الزمن؛ فكأنه ليس لحظة تمر، بل يومٌ يواجه الإنسان بحقيقته كاملة. ثم وصفت عسرته بأنها على الكافرين ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، فجاء نفي اليسر بعد إثبات العسر ليغلق كل بابٍ لتخفيف الوصف.

وقد كان بوسعهم في الدنيا أن يجعلوا ذلك اليوم يسيراً بالإيمان والعمل الصالح، لكنهم اختاروا أن يستثقلوا التكليف القصير، فواجهوا العسر الطويل. استثقلوا سجدةً لا تستغرق دقائق، وتوبةً تحررهم من ذنب، وردَّ مظلمةٍ يطهر أموالهم؛ فإذا ما فروا منه صار وراءهم يومٌ لا يقدرّون على تخفيفه.

والإنسان يعيش بين نداءات كثيرة: نداء الشهوة، ونداء السوق، ونداء الجماعة، ونداء المكانة. يستجيب لكل صوتٍ يخشى أن يفوته، وقد يؤخر نداء الله كأن بوسعه أن يتأخر عنه إلى الأبد.

ثم يأتي الناقور، فيسقط سلطان الأصوات كلها.

إن الحكمة أن تستجيب اليوم للنداء الذي يقودك إلى النجاة، قبل أن تسمع النداء الذي لا يبقى بعده عمل.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾: جملةٌ يوقظ إيقاعها السمع، لكن غايتها الكبرى أن توقظ القلب.

الباب الثالث

الْكَلِمَةُ الصَّغِيرَةُ وَالْعَالَمُ الْكَبِيرُ

قد تكون الكلمة القرآنية قليلة الحروف، غير أن قصرها لا يضيّق معناها؛ بل يزيدُها تركيزًا، حتى تبدو كالنواة الصغيرة التي يختبئ في داخلها امتداد الشجرة كلها.

وهناك كلماتٌ لا تشرح مفهومًا جزئيًا فحسب، بل تقيم للإنسان رؤيةً كاملة: من هو؟ وإلى أين يسير؟ وما الذي يملأ نقصه؟ وأين يكمن فلاحه أو خسارته؟ وما القوة التي تحفظ قلبه حين تضطرب الحياة؟

ومن هذه الكلمات ما عُرف في لغة العرب قبل نزول القرآن، لكن القرآن أعاد بناء دلالاته داخل التصور الإيماني، فنقله من المعنى المحدود إلى الأفق الشامل. فالفلاح لم يعد نجاحًا في مطلبٍ قريب، والخسر لم يعد نقصًا في مال، والسكينة لم تعد مجرد هدوء، والصمد لم يعد وصفًا يُتداول، بل صار بابًا إلى معرفة الله وتنزيهه وكمال الافتقار إليه.

في هذا الباب لن نقف عند غرابة الكلمة، بل عند اتساع عالمها؛ إذ قد يعرف القارئ معناها الأول، ثم يظل بعيدًا عن الحقيقة التي تريد أن تنشئها في نفسه.

الفصل الأول

﴿الصَّمَدُ﴾: الكلمة التي تكشف فقر الوجود كَلِّهِ

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

كلمتان فقط، لكنهما تحملان من حقائق التوحيد ما لا تحيط به المطولات.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

والصمد هو الكامل في سؤده وصفاته، المقصود في الحوائج، الذي تفتقر إليه الخلائق كلها، وهو غني عنها جميعاً. ولا يليق كمال هذا الوصف على الإطلاق إلا بالله سبحانه.

إن الآية لا تقول إن الله يقضي حاجات العباد فحسب، بل تكشف بنية الوجود كلها: كل مخلوق محتاج، والله وحده هو المقصود في الحاجات، الكامل الذي لا يلحقه نقص، والغني الذي لا يفتقر إلى سواه.

الإنسان يولد محاطاً بالحاجة. يحتاج إلى الهواء قبل أن يعرف اسمه، وإلى الطعام قبل أن يتعلم السؤال، وإلى الحنان قبل أن يعي معنى الأمان. ثم يكبر فتتغير صور حاجاته ولا تزول: يحتاج إلى الصحة، والمحبة، والمعرفة، والهداية، والمغفرة، والثبات، وحسن العاقبة.

قد يستطيع أن يخفي حاجته عن الناس، لكنه لا يستطيع أن يخرج من حقيقتها.

بل إن قوته نفسها محتاجة؛ يحتاج القلب إلى أن يواصل نبضه، والعقل إلى أن يبقى متماسكًا، والجسد إلى أن تستمر أنظمتها التي لا يديرها الإنسان بإرادته. نحن لا نفتقر إلى الله في مواطن الضعف وحدها، بل نفتقر إليه في كل لحظة، حتى في اللحظة التي نشعر فيها أننا أقوياء.

ومن هنا تأتي كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾ لتضع الأشياء في مواضعها: لست قائمًا بنفسك، فلا تخدعك مهارتك. والناس الذين تقصدهم في حاجتك محتاجون مثلك، فلا تجعل افتقارك إليهم عبوديةً لقلبك. والأسباب التي تستخدمها لا تعمل خارج إرادة الله، فلا تقف عندها وتنسى مسببها.

ليس المقصود أن يهجر الإنسان الأسباب، بل أن يعرف قدرها. يطرق أبواب الخلق بيده حين تدعو الحاجة، لكن قلبه يطرق باب الله أولاً وآخرًا؛ لأنه يعلم أن يد الطبيب لا تشفي وحدها، وأن المال لا يحفظ وحده، وأن الصديق لا ينصر إلا بما يقدره الله.

وكلما نضج توحيد العبد، انتقل من التعلق بالعطايا إلى التعلق بالمعطي، ومن الركون إلى الوسائط إلى رؤية افتقار الوسائط نفسها. يرى الغني فيعلم أن غناه عارية، ويرى القوي فيعلم أن قوته موهوبة، ويرى العالم فيعلم أن علمه قطرة، ثم يتوجه إلى الصمد الذي لا يستمد كماله من أحد.

وتمنح الكلمة القلب كرامةً عجيبة؛ لأنها تحرره من التذلل الباطني للمخلوق. فإذا كان الله هو الصمد، فلماذا يجعل الإنسان مصيره معلقًا برضا من لا يملك لنفسه ضررًا ولا نفعًا؟ ولماذا ينكسر عند أبوابٍ لا تفتح إلا بإذن الله؟

كم من إنسانٍ أَرهَقَ نفسه وهو يطلب من العاجزين كفايته الكاملة، ثم غضب منهم لأنهم لم يكونوا آلهة! حَمَلَ الزوج أو الصديق أو الجماعة ما لا يطيقون، وانتظر منهم أن يملؤوا كل فراغٍ في روحه. لكنه لم يفهم أن في القلب فاقةً لا يملؤها مخلوق، وأن بعض الفراغات خُلقت لتقوده إلى الله.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ليست معلومةً عقدية تُحفظ فقط؛ إنها تحريراً للإنسان من سوء توزيع افتقاره. أن تعطي الخلق قدرهم، فلا تحتقرهم ولا تؤلّهم، وأن تعرف لله كماله الذي لا يشاركه فيه أحد.

والصمدية الإلهية لا تعني مجرد الإجابة، بل تعني أن الله سبحانه كاملٌ في ذاته وأسمائه وصفاته، منزّهٌ عن الحاجة والنقص والمماثلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. نقصده لأننا فقراء، ونعبده لأنه وحده المستحق للعبادة، ونرجوه لأن خزائنه لا تنفذ، ونستغيث به لأنه لا يعجزه شيء.

وكلما تكاثرت حاجاتك، لا تظن أنها دليلٌ على أنك متروك؛ قد تكون أصابع خفية تشير كلها إلى الباب نفسه:

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

الفصل الثاني

﴿السَّكِينَةَ﴾: قُوَّةٌ هَادِئَةٌ تَنْزِلُ عَلَى الْقَلْبِ

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا
إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

لم يقل: هو الذي أزال الخوف من حول المؤمنين، بل قال: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ
فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قد يبقى الخطر في الخارج، وتبقى الأسباب الظاهرة مثيرة للقلق، لكن شيئاً
من عند الله ينزل في الداخل، فيتغير وزن المشهد كله. ليست السكينة أن
تزل العاصفة دائماً؛ بل قد تكون أن يثبت القلب وهي تعصف.

وهذه هي قوتها المدهشة: إنها هدوءٌ لا يصنعه غياب الأسباب المخيفة، بل
يصنعه حضور اليقين بالله.

اختار القرآن فعل ﴿أَنْزَلَ﴾، فكشف أن السكينة ليست صناعةً نفسية خالصة
يستطيع الإنسان أن يستدعيها متى شاء بمجرد تكرار عبارات الطمأنة. قد
يأخذ بأسبابها من ذكرٍ وصلاةٍ وتفكيرٍ، لكنها في حقيقتها منحةٌ من الله، تنزل
حين يعلم سبحانه حاجة القلب إليها.

ثم حدد موضعها: ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

القلب هو مكان المعركة قبل أن تكون في الخارج. هناك تتصارع الأخبار
والتوقعات والذكريات؛ وهناك يكبر العدو أو يصغر، وتتحول الحادثة إلى

يَأْسٍ أَوْ إِلَى بَابٍ يَقِينٍ. فَإِذَا نَزَلَتِ السَّكِينَةُ فِي الْقَلْبِ، لَمْ تَعُدِ الْأَحْدَاثُ قَادِرَةً عَلَى الْعَبَثِ بِهِ كَمَا كَانَتْ.

وَلَيْسَتْ السَّكِينَةُ تَخْدِيرًا يُلْغِي إِدْرَاكَ الْخَطَرِ. الْمُؤْمِنُ يَرَى اخْتِلَالَ الْمَوَازِينِ، وَيَعْرِفُ قِلَّةَ الْعَدَدِ، وَيَدْرِكُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ؛ لَكِنَّهُ يَرَى فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ رَبًّا لَا تَضْطَرُّ قُدْرَتُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ تَدْيِيرُهُ، وَلَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ خَارِجَ عِلْمِهِ.

إِنَّهَا بِصِيرَةٍ هَادِئَةٍ، لَا غَفْلَةٍ مَرِيحَةٍ.

وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ غَايَتَهَا: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. فَالْمَحْنَةُ لَا تَكْشِفُ الْإِيمَانَ الْقَائِمَ فَقَطْ؛ قَدْ تَصَبَّحَ مَوْضِعًا لِنُمُوهِ. يَنْزِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى التَّجَرُّبَةِ بِقَدْرِ مِنَ الْيَقِينِ، ثُمَّ يَرَى كِفَايَةَ اللَّهِ وَلَطْفَهُ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا بِإِيمَانٍ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُهُ قَبْلُهَا.

كَأَنَّ السَّكِينَةَ لَا تَحْفَظُ الْقَلْبَ مِنَ الْانْكَسَارِ وَحْدَهُ، بَلْ تَوْسَعُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ.

وَمَا أَعْجَبَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْقُلُوبِ، لَا عَلَى الظُّرُوفِ. فَالظُّرُوفُ قَدْ تَتَأَخَّرُ فِي التَّغْيِيرِ، لَكِنَّ اللَّهَ يَبْدَأُ بِمَوْضِعِ الرُّؤْيَا نَفْسَهُ. وَإِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ لِمَقْبَلِ الْقَدْرِ، أَصْبَحَ مَا كَانَ يَرَاهُ نِهَائَةً مَرَحَلَةً، وَمَا كَانَ يَرَاهُ تَخْلِيًّا تَرْبِيَةً، وَمَا كَانَ يَرَاهُ انْسِدَادًا بَابًا لَمْ تَتَضَحَّ حِكْمَتُهُ بَعْدَ.

كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ طَلَبَ السَّكِينَةَ مِنْ تَرْتِيبِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَفَقَ رَغْبَتَهُ! اشْتَرَطَ لِكَيْ يَطْمَئِنَّ أَنْ يَزُولَ خَصْمُهُ، وَيَعُودَ غَائِبُهُ، وَيَصِحَّ بَدَنُهُ، وَيَتَحَقَّقَ مَشْرُوعُهُ. وَكَلَّمَا اسْتَقَامَ جَانِبُ اضْطِرَابٍ آخَرَ، فَظَلَّ قَلْبُهُ مُؤْجِلَ الطَّمَأْنِينَةِ.

أَمَّا الْقُرْآنُ فَيَدُلُّهُ عَلَى سَكِينَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَنْزَلَ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْإِجَابَاتِ.

تنام في الغار والطلب قريب.

وتثبت في الموقف والعدد قليل.

وتقبل على صلحٍ لا تنكشف حكمته في اللحظة الأولى.

لأن السكينة ليست مكافأةً بعد نهاية الطريق فقط؛ قد تكون الزاد الذي تستطيع به إكماله.

إنها كلمةٌ رخية الجرس، تنتهي بتاءٍ مربوطة كأنها تستقر ولا تتبدد، لكن معناها ليس وهناً. وراء هدوئها قوةٌ تحفظ الإرادة من الانهيار، والعقل من التشوش، واللسان من الاعتراض، والقدم من التراجع.

﴿السَّكِينَةُ﴾: جيشٌ إلهي لا يراه الخصم، لكنه يراه في ثباتك.

الفصل الثالث

﴿الْفَلَاحُ﴾: النجاح حين ينجو الإنسان كلُّه

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

لا تبدأ سورة المؤمنون بأمرٍ أو نداء، بل بإعلان نتيجة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

جاءت ﴿قَدْ﴾ لتفيد التحقيق، فكأن الفلاح قد ثبت ووقع، مع أن المؤمنين لا يزالون في الطريق. وما ذلك إلا لأن وعد الله حق، ولأن الصفات التي ستذكرها السورة تحمل في داخلها بذور النتيجة.

والفلاح أوسع من النجاح. قد ينجح الإنسان في مشروع ويفشل في بناء نفسه، وقد يجمع مَالًا ويفقد طمأنينته، وقد يربح معركةً ويخسر ضميره. أما الفلاح القرآني فهو ظفرٌ بالخير ونجاةٌ من الشر وبقاءٌ للثمرة؛ نجاحٌ لا ينقسم فيه الإنسان على نفسه، ولا يربح عاجلته بثمن آخرته.

ولهذا لم يقل: قد أفلح المصلون فقط، ولا: المتصدقون وحدهم، بل قال: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم أخذ يرسم هيئة هذه الهوية في الحياة: خشوعٌ في الصلاة، وإعراضٌ عن اللغو، وأداءٌ للزكاة، وحفظٌ للفروج، ورعايةٌ للأمانات والعهود، ومحافظةٌ على الصلوات.

الإيمان هنا ليس لقبًا يُعلّق على الإنسان؛ إنه بناءٌ متحرك، يظهر في علاقته بالله، ووقته، وماله، وشهوته، وكلمته، ووعدته.

وهذا يكشف عالم ﴿الْفَلَاحِ﴾: ليس لحظة تصفيق في آخر الطريق، بل نظام حياة يبدأ من الداخل. فالخاشع يفلح لأنه حرر قلبه من التشتت بين الآلهة الصغيرة. والمعرض عن اللغو يفلح لأنه لم يسمح للتفاهة أن تستهلك عمره. والمؤدي للأمانة يفلح لأنه صار أهلاً للثقة. والحافظ لحدود الله يفلح لأنه لم يبيع كرامة الروح لشهوةٍ عابرة.

ثم تأتي نهاية الصفات: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

هنا يبلغ الفلاح معناه الكامل: الفردوس والخلود. لم يعد الفوز لحظةً تنتهي، بل مقامًا لا يزول. كل نجاحٍ في الدنيا مهددٌ بالانقطاع؛ إما أن يتركك، وإما أن تتركه. أما فلاح الآخرة فلا موت بعده، ولا خوف على النعمة من النفاذ.

ولفظه الفلاح ذات صلة بمعنى الشق والإظهار، كَفَلَحَ الأرض، وكأن المفلح شقَّ صلابة العوائق حتى بلغ الثمرة. وهذا يلائم طبيعة الطريق؛ فالفلاح لا يُهدى للكسل، بل يُنال بمجاهدة ما تراكم على القلب من غفلة، وما امتد أمام الإرادة من هوى.

إن الفلاح لا يعني أن المؤمن لن يتألم، أو أنه سيربح كل معارك الدنيا في ظاهرها. قد يُبتلى ويُحرم ويُظلم، وقد يراه الناس خاسرًا؛ لكن القرآن يقيس النتيجة من نهايتها الكبرى، لا من مشهدٍ عابر في منتصف الطريق.

يوسف في الحب لم يكن خاسرًا.

وموسى أمام البحر لم يكن محاصرًا.

وأصحاب الأخدود لم يكونوا مهزومين.

فالخسارة لا يحددها مقدار الألم، بل تحددها الجهة التي ينتهي إليها الإنسان بعده.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: إعلانٌ يحرر المؤمن من محاكمات اللحظة. ما دام يسير إلى الله محافظاً على إيمانه، فقد بدأت حقيقة فلاحه، ولو لم ير العالم بعدُ إلا مشقته.

الفصل الرابع

﴿خُسْرٍ﴾: العمرُ الذي ينقص وهو يمضي

يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

لم يقل: إن الإنسان خاسر، بل قال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.

والفارق يصنع صورةً أشدَّ إحاطةً؛ فالخسر ليس صفةً تلامس الإنسان من الخارج، بل وعاءٌ يحيط به، ومجالٌ يتحرك داخله. إنه مغمورٌ في الخسارة ما دام رأس ماله . العمر . ينقص في كل لحظة، دون أن يستطيع استعادة شيءٍ منه.

جاء القسم بالعصر قبل الحكم، لأن الزمن هو المسرح الذي تقع فيه الخسارة، وهو رأس المال الذي تُقاس به. لا يحتاج الإنسان إلى فعلٍ استثنائي ليبدأ في فقد عمره؛ يكفي أن تمر الدقيقة.

وهذه هي الحقيقة التي نتهرب منها بالانشغال: نحن لا نقف على أرضٍ ثابتة، بل نجري فوق عمرٍ ينسحب من تحت أقدامنا.

المال إذا نقص أمكن تعويضه، والصحة قد تعود بعد المرض، والمكانة قد تُسترد بعد زوالها؛ أما اليوم الذي مضى فلا توجد قوةٌ في الأرض تعيده إلى صاحبه. يستطيع أن يتوب من أثره، وأن يصلح ما أفسده، لكنه لا يستطيع أن يعيش ساعته مرةً أخرى.

وجاءت كلمة ﴿خُسْرٍ﴾ نكرةً، فتفتح المعنى على جنس الخسر واتساعه: خسرٌ في الزمن، وفي العمل، وفي الغاية، وفي المصير. فالإنسان الذي لا يعرف لماذا يعيش لا يفقد أياماً فقط؛ بل يفقد نفسه داخل أيامه.

ثم جاءت اللام في ﴿لَفِي﴾ لتزيد الحكم تأكيداً، وكأن القرآن يريد أن ينتزع الإنسان من الوهم الذي يطمئنه: لست خارج الخسارة ثم تدخلها إذا أخطأت؛ الأصل أنك داخل تيار النقصان، ولا تنجو منه إلا بمنهج محدد.

ثم يأتي الاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

أربعة أركان تنقذ العمر من الذهاب الفارغ: حقيقة تستقر في القلب، وعملٌ يجسدها، وحقٌ يتوصى به المجتمع، وصبرٌ يحفظ الطريق من الانقطاع.

الإيمان يمنح الزمن غايته.

والعمل الصالح يحول الوقت إلى أثر.

والتواصي بالحق يمنع النجاة من الانغلاق على الفرد.

والتواصي بالصبر يحمي الحق من ضعف النفوس وطول الطريق.

هكذا لا ينجو الإنسان بمجرد أن يملأ يومه بالحركة؛ فقد تكون الحركة نفسها صورةً من صور الخسر. ليس السؤال: كم فعلت؟ بل: لأي حقيقة فعلت، وما الذي بقي من فعلك عند الله؟

إنَّ العَصْرَ لَا يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ يَأْخُذُهُ بِالتَّقْسِيطِ. شَعْرَةٌ تَشْيِبُ، وَقُوَّةٌ تَنْقُصُ، وَذِكْرٌ تَبْتَعِدُ، وَيَوْمٌ يُطَوِّى. لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحُولَ هَذَا النِّقْصُ الظَّاهِرُ إِلَى زِيَادَةٍ بَاقِيَةٍ: يَفْنَى جَسَدَهُ وَيَكْبُرُ عَمَلُهُ، وَيَمْضِي عَمْرُهُ وَيَبْقَى أَثَرُهُ، وَيَغِيبُ عَنِ الْأَرْضِ ثُمَّ يَجِدُ مَا قَدَّمَ حَاضِرًا عِنْدَ اللَّهِ.

لِذَلِكَ لَمْ يَكُنِ الزَّمَنُ عَدُوًّا فِي ذَاتِهِ؛ إِنَّهُ مَادَّةُ النِّجَاةِ كَمَا أَنَّهُ مَادَّةُ الْخَسْرِ. السَّكِينُ نَفْسَهَا قَدْ تَقَطَّعَ الْقَيْدَ أَوْ تَجَرَّحَ الْيَدَ، وَالْعَمْرُ نَفْسَهُ قَدْ يَكُونُ طَرِيقًا إِلَى الْفَرْدَوْسِ أَوْ حِجَّةً عَلَى صَاحِبِهِ.

مَا أَوْجَزَ كَلِمَةَ ﴿خُسْرٍ﴾، وَمَا أَوْسَعَ الْمَرَاةَ الَّتِي تَضَعُهَا أَمَامَ الْإِنْسَانِ!

إِنَّمَا لَا تَسْأَلُهُ عَمَّا يَمْلِكُ، بَلْ عَمَّا بَقِيَ مِنْ عَمْرِهِ فِيمَا يَمْلِكُ. وَلَا تَسْأَلُهُ كَمْ سَنَةً عَاشَ، بَلْ كَمْ حَيَاةً وَضَعَ فِي سَنَوَاتِهِ.

فَقَدْ يَطُولُ الْعَمْرُ وَيَقْصُرُ الْمَعْنَى، وَقَدْ يَقْصُرُ الْعَمْرُ وَيَبْقَى أَثَرُهُ مَمْتَدًّا بَعْدَ صَاحِبِهِ.

وَالرَّابِحُ لَيْسَ مِنْ مَنْعِ أَيَّامِهِ مِنَ الرَّحِيلِ؛ فَهَذَا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ. الرَّابِحُ مِنْ جَعْلِهَا، قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ، تَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ.

الفصل الخامس

﴿الْبَرَكَةُ﴾: حين يصبح القليلُ أكبرَ من عدده

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

البركة كلمةٌ نرددها كثيرًا، حتى تكاد كثرة الاستعمال تحجب عنا عمقها. ندعو بها في المال والعمر والعلم والذرية، لكن معناها القرآني أوسع من مجرد الزيادة الظاهرة؛ إنها ثبوت الخير ونماؤه ودوامه، وأن يفيض الشيء بآثرٍ يتجاوز حجمه المحسوس.

وقد جاء وصف ﴿تَبَارَكَ﴾ في القرآن لله تعالى، دالًّا على تعاظم خيره، وكماله، ودوام بركاته، وتنزهه وجلاله. فلا تُطلب البركة في حقيقتها إلا منه؛ لأنه مصدر الخير، وبيده الملك، وهو الذي يضع في الأشياء من النفع والأثر ما يشاء.

إننا نقيس الأشياء غالبًا بعددها: كم نملك؟ كم بقي من الوقت؟ كم عدد الأنصار؟ كم تبلغ الإمكانيات؟ أما البركة فتعلّمنا أن القيمة ليست محصورةً في الكثرة. قد يكون الشيء كثيرًا في العدد قليلًا في النفع، وقد يكون محدودًا في الظاهر ثم يفتح الله به أبوابًا لا تبلغها الإمكانيات الضخمة.

كم من عمرٍ طويل مرَّ على الأرض ولم يترك فيها نورًا!

وكم من عمرٍ قصيرٍ ملأ قرونًا بالعلم والهدى!

وكم من كلمةٍ قليلةٍ أحيت قلبًا!

وكم من مالٍ وفيرٍ أتعب صاحبه ولم يغنه!

البركة ليست دائماً أن يزيد الشيء في يدك، بل قد تكون أن يقل احتياجك إليه. وقد لا تكون في اتساع الوقت، بل في صفائه من التبدد. وقد لا تظهر في وفرة المعرفة، بل في علمٍ قليل يقود إلى عملٍ صادق.

إنها ليست حساباً جديداً للأعداد، بل سرّاً يضعه الله في الأثر.

وحين يقول الله عن القرآن: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾، فإن البركة تتجلى في عطائه الذي لا ينفد. تقرأ الآية مرةً فتمنحك معنى، ثم تعود إليها بعد تجربةٍ جديدة فتفتح لك وجهًا آخر من الهداية، دون أن يتبدل أصل دلالتها. يقرأها العالم والعامي، والحزين والمطمئن، وصاحب البداية وصاحب الطريق الطويل؛ فيأخذ كل واحدٍ منها بقدر صدقه وحاجته.

كتابٌ واحد، لكنه بنى أمة، وأقام ميزاناً، وصاغ ضمائر، وظل عبر القرون يوقظ قلوباً لم تكن قد وُلدت حين نزل.

هذه هي البركة: بقاء العطاء متجدداً من غير أن ينضب أصله.

وقد تكون البركة في النقص الذي يحميك، كما تكون في العطاء الذي يغنيك. يمنع الله عنك أمراً كنت تريده، فتكتشف بعد زمن أن المنع حفظك من فتنة. ويغلق طريقاً كنت تراه واسعاً، فيفتح لك من ضيقه معرفةً بنفسك وبربك لم تكن لتبلغها في السعة.

فليست كل زيادة بركة، ولا كل قلة حرماناً.

قد يكثر المال وتقل الطمأنينة.

ويكثر الأصدقاء ويقل الصدق.

وتكثر الكلمات ويقل المعنى.

وتكثر السنوات ويقل الأثر.

ومن هنا تعيد كلمة ﴿الْبَرَكَةُ﴾ ترتيب سؤال الإنسان. بدل أن يقول: كيف أحصل على أكثر؟ يبدأ يسأل: كيف يجعل الله فيما لديّ خيرًا أبقي وأصفى؟

إن البركة لا تعفينا من العمل، لكنها تمنعنا من عبادة الكثرة. نزرع ونجتهد ونحسن التخطيط، ثم نعلم أن حجم الثمرة لا تحدده أيدينا وحدها. قد يفتح الله من عملٍ صغير ما لا يفتحه من مشاريع عظيمة؛ لأن الأول خرج من قلبٍ صادق ووُضع له القبول، بينما امتلأ الآخر بضجيج الذات.

وما أشد حاجة الكاتب إلى هذا المعنى! فقد يكتب صفحةً يفتح الله بها قلبًا، ويؤلف كتابًا ضخماً لا يتجاوز أثره غلافه. ليست العبرة بكمية الحبر، بل بمقدار ما أودع الله فيه من الصدق والنور.

﴿الْبَرَكَةُ﴾: أن يصبح القليل كثيرًا بالله، وأن يبقى أثر العمل بعد انقضاء زمنه، وأن يمنحك الشيء من الخير أكثر مما تعدده يدك.

الفصل السادس

﴿النُّورُ﴾: ما يكشف الطريقَ ويمنح الأشياءَ معناها

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

إنه نورٌ يليق بجلال الله، نؤمن بما وصف الله به نفسه من غير تشبيه بنور المخلوقات ولا تكييف، فهو سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. ومن نوره سبحانه تنوّرت السماوات والأرض، وبنوره يهتدي أهل الإيمان، وهو الذي أنزل الوحي نورًا يكشف الحق من الباطل.

والنور من الكلمات التي نظن أننا نعرفها لأننا نرى أثرها كل يوم؛ لكنه حين يدخل البناء القرآني يتجاوز الضوء الذي تدركه العين إلى معنى الكشف والهداية والحياة والبصيرة.

فالضوء المادي يكشف لك شكل الطريق، أما نور الوحي فيكشف لك قيمته ووجهته. قد ترى بعينيك الأبواب كلها، لكنك لا تعرف أيها يقود إلى النجاة. وقد تكون حاد البصر، واسع المعرفة بأسباب الدنيا، ثم تعجز عن رؤية حقيقتك وغاية وجودك.

إن الإنسان لا يضل دائمًا لأنه لا يرى؛ قد يضل لأنه يرى الأشياء منفصلةً عن معناها.

يرى المال ولا يرى امتحانه.

ويرى القوة ولا يرى أمانتها.

ويرى اللذة ولا يرى عاقبتها.

ويرى الموت ولا يرى ما بعده.

فيأتي نور الوحي فلا يضيف أشياء جديدة إلى العالم فقط، بل يكشف العلاقات الخفية بين الأشياء ومصائرهما. يريك النعمة مرتبطةً بالشكر، والذنب مرتبطةً بأثره، والصبر مرتبطاً بالأجر، والدنيا مرتبطةً بالآخرة.

ولهذا وصف الله كتابه بالنور: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾. فالقرآن لا يمنح العقل معلوماتٍ فحسب؛ بل يمنحه القدرة على أن يرى بها. قد يملك الإنسان الوقائع كلها، لكنه يضعها في ترتيبٍ خاطئ، فيأتي الوحي فيعيد تشكيل البصيرة.

والنور لا يخلق الطريق، بل يكشفه. الطريق إلى الله قائم، والفطرة تحمل أصل الاستعداد، والآيات ماثورة في الكون والنفوس؛ لكن الظلمات تحجب. فإذا جاء الوحي ظهرت المعالم، وعرف السائر موضع قدمه.

ومن بديع التعبير القرآني أن الظلمات تأتي في مواضع كثيرة مجموعة، بينما يأتي النور مفردًا: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. لأن سبل الباطل تتعدد: ظلمة الشهوة، وظلمة الشهية، وظلمة الكبر، وظلمة التقليد، وظلمة الخوف؛ أما الحق فيرده إلى وجهةٍ واحدة.

وليس كل من اقترب من النور انتفع به؛ فقد يغمض الإنسان عينه لأن الضوء يكشف ما يريد إخفاءه. والحقيقة ليست مريحةً دائمًا في بدايتها؛ لأنها تطالبنا بتغيير مواضع اعتدناها. لذلك قد يفر المرء من النور، لا لضعف حاجته، بل لقوة كشفه.

إن النور رحمة، لكنه مسؤولية أيضاً. فما رأيته به لا تستطيع بعده أن تدّعي أنك لم تكن تعلم. وكلما ازداد نصيب الإنسان من البصيرة، ازداد ما عليه من أمانة السير.

والقلب إذا امتلأ بنور الله لم يعد يطلب من مدائح الناس تعريفاً لقيّمته، ولا من كثرتهم برهاناً على الحق. يرى بنور الوحي ما لا تراه العيون المفتونة بالمظاهر، ويزن بالأبدية ما يزنه الآخرون باللحظة.

﴿النُّورُ﴾ كلمةٌ قصيرة، لكنها العالم الذي تصبح فيه الأشياء مرئيةً على حقيقتها. وليس أشدّ خسارةً من عينٍ ترى كل شيءٍ إلا الطريق إلى الله.

الفصل السابع

﴿الْفُرْقَانُ﴾: النورُ حين يتحول إلى معيار

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

الفرقان هو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل والظلم. وإذا كان النور يكشف الأشياء، فإن الفرقان يمنح الإنسان المعيار الذي يميز به بينها.

فليست أزمة البشر دائمًا في غياب المعلومات؛ قد تتكاثر المعلومات حتى تزدهم، ثم يظل الإنسان عاجزًا عن الحكم. يعرف ما حدث، لكنه لا يعرف ما الذي ينبغي أن يراه حقًا أو باطلاً. يسمع الحجج المتقابلة، وتحيط به الدعايات، فتختلط عليه الأسماء بالحقائق.

هنا يحتاج إلى الفرقان.

إن الباطل قلّمًا يقدم نفسه باسمه الصريح. الظلم يسمي نفسه حزمًا، والجبن يسمي نفسه حكمة، والانتهازية تسمي نفسها واقعية، والتعصب يتزّين باسم الوفاء، والهوى يبحث عن لفظٍ أخلاقي يخفي به رائحته.

ولا ينجو الإنسان بمجرد حسن النية إذا كان ميزانه مختلاً؛ فقد يخلص لشيءٍ باطل، ويبذل عمره في الدفاع عنه، ويظن حماسه دليلاً على صحته.

لذلك كان إنزال الفرقان رحمةً بالعقل والضمير. إنه ينزع حق تعريف الحق والباطل من أهواء البشر المتقلبة، ويرده إلى الله الذي يعلم خلقه، ولا تميل به مصلحة، ولا يخفى عليه ظاهرٌ ولا باطن.

وقد سعى القرآن نفسه فرقاناً؛ لأنه لا يكتفي بعرض المواعظ، بل يشق الخطوط الفاصلة بين المسارات. يقول للإنسان: هذا طريق الله، وهذه سبيلٌ تتفرق بكم عنه. هذا عدل، ولو غضب منه قريبك. وهذا ظلم، ولو مارسه من تحب. وهذه طاعة، ولو شقت على نفسك. وهذه معصية، ولو صفق لها المجتمع كله.

إن الفرقان يحرر الضمير من سطوة الأسماء الكبيرة. فلا العصبية تجعل الخطأ صواباً، ولا كثرة الأتباع تحول الباطل إلى حق، ولا ضعف المظلوم يسقط حقه.

لكن امتلاك النص لا يعني تلقائياً امتلاك الفرقان؛ فقد يقرأ الإنسان الوحي بعين الهوى، ثم ينتزع منه ما يخدم تحيزه. الفرقان ثمرة صدقٍ وتقوى وتجرد. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

حين تتقي الله، تتحرر تدريجياً من الحاجة إلى تحريف الحقيقة كي ترضي نفسك. يصبح رضا الله أكبر من رضا الجماعة، فتصف الأشياء بأسمائها، ولو خسرت مكاناً بين الناس.

إن أعظم الحجب عن الفرقان ليست قلة الذكاء، بل كثرة المصالح. قد يعرف العقل الحقيقة، ثم يمنعه الهوى من الاعتراف بها. والتقوى لا تضيف إلى الإنسان معلوماتٍ فقط، بل تطهر موضع الحكم من الرشوة الداخلية.

وما أحوج عصرنا إلى هذه الكلمة! عصرٌ تتدفق فيه الصور والأخبار، ويملك فيه الباطل آلاتٍ هائلة لتكرار نفسه، حتى يصبح الشائع عند كثيرين مرادفًا للصحيح. وفي هذا الضجيج لا تكفي سرعة الوصول إلى المعلومة؛ نحتاج إلى سلامة الميزان.

﴿الْفُرْقَان﴾: أن يمنحك الله عيناً ترى الفاصل الدقيق حيث تختلط الألوان،
وشجاعةً تقف مع الحق بعد أن تراه.

الفصل الثامن

﴿التَّقْوَى﴾: أن تجعل بين قلبك والهلاك وقاية

يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

التقوى من أكثر الكلمات دوراً في الخطاب الديني، ومن أكثرها تعرضاً لأن تتحول بالتكرار إلى لفظٍ مألوفٍ لا توقظ دلالته شعوراً. لكنها في أصلها القرآني كلمة نابضة بالحركة: أن تجعل بينك وبين ما تخاف وقاية، وأن تضع بين روحك وسخط الله حاجزاً من الإيمان والطاعة.

ليست التقوى خوفاً ساكناً يختبئ في القلب، بل خوفٌ بصير يتحول إلى اختيار.

أن تكفَّ حين تقدر.

وأن تصدق حين يغريك الكذب.

وأن تعدل حين يمنحك الهوى مبرراً للظلم.

وأن تترك ما تشتهي لأنك ترى وراء اللحظة لقاءً لا يغيب.

ولهذا قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. فالإنسان مسافر، والأيام مراحل، والموت ليس انقطاعاً للطريق بل انتقالاً إلى نهايته الكبرى. وكل مسافرٍ عاقل يسأل عما يحمله معه، لا عما يتركه خلفه.

قد يملأ الإنسان مخازنه في الدنيا، ثم يصل إلى الآخرة خفيف اليدين. وقد يعيش محدود المال، لكنه يحمل في قلبه من التقوى ما يجد أثره عند الله أثقل من خزائن الأرض.

وصف القرآن التقوى بأنها خير الزاد؛ لأن سائر الأزواد تنتهي وظيفتها عند حدود الدنيا. الطعام يحفظ الجسد زمناً، والمال يسد حاجة، والصاحب يؤنس مرحلة؛ أما التقوى فتعبر مع صاحبها الحد الذي تتخلف عنده الأشياء كلها.

إنها ليست مظهرًا اجتماعيًا، ولا لسانًا يكثر من المصطلحات، ولا تشددًا في مراقبة الآخرين. حقيقتها تظهر حين يخلو الإنسان بما يستطيع أن يعصي الله فيه، ثم يتذكر نظر الله إليه.

قد ينجح المرء في صناعة صورة المتقي، لكنه لا يستطيع أن يخدع الله. ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. القلب هو موضع الأصل، ثم تظهر ثماره على الجوارح. فإذا امتلأ القلب بتعظيم الله، لم تعد الحدود أثقالاً مفروضة عليه؛ غدت أسوارًا تحمي إنسانيته من السقوط.

والتقوى لا تعني أن المتقي لا يخطئ؛ بل تعني أن قلبه لا يستوطن الخطأ. إذا زلَّ رجع، وإذا غفل تذكر، وإذا انكشف له الحق لم يمنعه كبره من اتباعه. الفرق بينه وبين الغافل ليس العصمة، بل سرعة العودة وصدقها.

وفي كلمة التقوى توازنٌ بين الخوف والرجاء. أنت تتقي عدل الله، لكنك تفعل ذلك داخل رحمته؛ تهرب مما يغضبه إليه، وتستعيد من عقابه بعفوه. ليست رحلةً بعيدًا عن الله، بل اقترابًا منه.

وقد جعل القرآن التقوى معيار الكرامة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. فسقطت أمامها أوهام النسب واللون والمال والقبيلة. الكرامة ليست إرثاً عائلياً، ولا شهادةً يمنحها المجتمع لأصحاب النفوذ؛ إنها منزلةٌ يعلمها الله، وقد يكون أرفع الناس عنده من يمر بينهم فلا يلتفتون إليه.

﴿التَّقْوَى﴾ كلمةٌ تعيد بناء الرقابة في الإنسان؛ فلا يحتاج في كل لحظة إلى عينٍ من الخارج، لأن في قلبه علماً بأن الله يراه. وحين تستقر هذه الحقيقة، يصبح الضمير حياً حتى في المواضع التي ينام فيها القانون.

إنها خير الزاد؛ لأنها لا تثقل ظهر المسافر، بل تحرره من الأثقال التي تمنعه من الوصول.

الفصل التاسع

﴿الإِحْسَانُ﴾: أن يتجاوز الخيرُ حدودَ الواجب

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

العدل أن تعطي كل ذي حق حقه، وألا تنقص الإنسان مما استحق. أما الإحسان فهو أن يرتفع سلوكك فوق الحد الأدنى للواجب؛ أن تعطي أكثر مما عليك، وتعفو مع القدرة، وتُتقن حين كان يكفيك أن تؤدي، وتعبد الله بقلبٍ يستشعر مراقبته وقربه.

فالعدل يحفظ نظام الحياة، والإحسان يمنحها جمالها.

يمكن لمجتمع أن يبقى بالعدل، لكنه لا يصبح دافئاً إلا بالإحسان. فالحقوق تضبط المسافات بين الناس، أما الإحسان فيقيم الجسور بينهم. والقانون قد يمنعك من الإيذاء، لكنه لا يستطيع أن يجبرك على المواساة، أو أن يخلق فيك الرحمة، أو أن يجعلك تتنازل عن بعض حقك جبراً لقلب ضعيف.

لهذا قرن الله بينهما؛ فلا يغني الإحسان عن العدل، ولا ينبغي أن يتحول التسامح إلى غطاءٍ يُحرم به المظلوم حقه. نبدأ بإقامة الميزان، ثم نرتقي إلى الفضل. أما أن نطلب من الضعيف أن يحسن إلى من يظلمه، بينما نترك الظالم مستمراً في ظلمه، فليس ذلك من تمام الإحسان؛ لأن أول الإحسان أن تُرد الحقوق إلى أهلها.

والإحسان من الكلمات التي تتسع من علاقة الإنسان بربه إلى علاقته بالخلق، ثم إلى طريقته في أداء العمل كله. في الحديث النبوي الشريف: «أن

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فالإحسان يبدأ من حضور القلب مع الله؛ ومن استشعر نظر الله إليه استحميا أن يقدم عملاً مشوهًا، ولو غابت عنه عيون الناس.

إن رداءة العمل كثيرًا ما تبدأ حين يظن الإنسان أن أحدًا لا يراه. يكتفي بالمظهر، ويهمل الباطن، ويؤدي ما يمنع عنه اللوم لا ما يستحق الثناء عند الله. أما المحسن فيحمل ميزانه معه؛ لأنه لا يعمل لعين المخلوق وحدها.

وقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾. جملةٌ قصيرة تقيم علاقةً بين ما يزرعه العبد وما يتلقاه من ربه. يحسن بطاقته المحدودة، فيجازيه الله بإحسانٍ يليق بكرمه. يقدم لحظة صدق، فيفتح الله له أبوابًا من الرحمة. يكف أذاه عن إنسان، فيصرف الله عنه من الأذى ما لا يعلمه.

لكن المحسن لا يتاجر مع الله بمنطق الحساب الضيق؛ إنه يفعل الخير لأنه وجد في معرفة الله ما رفعه فوق عبودية المقابل العاجل. قد يحسن إلى من لا يشكره، ويصل من يقطعه، ويحفظ المعروف لمن ينكره؛ لا لأنه لا يتألم، بل لأنه لا يريد أن يجعل أخلاق الآخرين مصدر أخلاقه.

الإحسان أن يبقى معدنك كريماً، حتى حين يختبرك لؤم الناس.

وهو لا يعني أن تفتح أبوابك للأذى بلا حدود، أو أن تعين المسيء على إساءته. فقد يكون من الإحسان أن تمنع، وأن تقيم الحد، وأن تنصح بوضوح؛ لأن الإحسان متعلقٌ بحقيقة الخير، لا بمجرد الصورة اللينة.

وللكلمة وجهٌ آخر في تلقي أقدار الله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. أعظم ما في الإحسان أن ثمرته ليست أثره في الدنيا وحدها، بل محبة الله.

وما قيمة أن يكسب الإنسان إعجاب الخلق ثم يفوته أن يكون ممن يحبهم رب العالمين؟

﴿الْإِحْسَانُ﴾: أن تعبد كأنك ترى، وأن تعمل لأن الله يرى، وأن تمنح الخير صورةً أجمل مما يفرضه الواجب وحده.

الفصل العاشر

﴿الصَّبْرُ﴾: القوة التي لا تُحدث ضجيجًا

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

الصبر كلمةٌ تبدو ساكنة، لكنها تخفي وراءها حركةً داخلية شديدة. فالصابر لا يفعل «لا شيء»؛ إنه يحبس نفسه عن الانهيار، ولسانه عن الاعتراض المحرّم، ويده عن الفعل الذي لا يرضي الله. يحفظ اتجاهه بينما تدفعه الآلام بعيدًا عنه.

إنه قوةٌ لا تُحدث دائمًا صوتًا.

قد يظن الناس أن القوة فيمن يرد بسرعة، أو يعلن غضبه، أو يكسر كل ما أمامه. لكن القرآن يكشف قوةً أعمق: أن تملك نفسك حين تستفز، وأن تحتمل الطريق حين تتأخر الثمرة، وأن تبقى وفياً للحق حين يصبح الثبات عليه مكلفًا.

والصبر في القرآن ليس لونًا واحدًا؛ فهو صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على القدر المؤلم. ولكل لونٍ معركته.

في الطاعة تقاوم ثقل النفس وتكرار العمل.

وعن المعصية تقاوم لذةً حاضرة من أجل عاقبةٍ لا تراها بعينيك.

وفي البلاء تقاوم تفسير الألم بوصفه هجرًا من الله، وتحفظ قلبك من سوء الظن به.

ولذلك لم يجعل القرآن الصبر حالةً هامشية في الإيمان، بل جعله أحد مفاتيح الطريق: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. فالإنسان لا يستطيع عبور الحياة بما يعرفه فقط؛ يحتاج إلى قوةٍ تبقيه عاملاً بما يعرفه حين تشتد المعارضة من داخله وخارجه.

المعرفة تقول له: هذا حق.

والصبر يقول: ابقَ عليه.

المعرفة تكشف الطريق.

والصبر يحمل القدم حين يطول.

ومما يفسد معنى الصبر أن يُستعمل لتبرير النذل والاستسلام للظلم. فالصبر القرآني لا يلغي المقاومة، بل يمنعها من أن تنحرف إلى طيش. يصبر المجاهد وهو يواجه، ويصبر المصلح وهو يتكلم، ويصبر المظلوم وهو يطلب حقه دون أن يتحول إلى نسخةٍ أخرى من ظالمه.

إنه ضببطٌ للقوة، لا إلغاءٌ لها.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. كأن الحساب المحدود لا يتسع لما احتملوه في الخفاء. فالناس يرون ظاهر الموقف، لكن الله يعلم عدد المرات التي كاد فيها القلب يسقط ثم استمسك، وعدد الكلمات التي بلغت اللسان ثم حبسها صاحبها، وعدد الليالي التي قاوم فيها اليأس ولم يره أحد.

لهذا يأتي الجزاء بغير حساب؛ لأن أوجاعهم نفسها لم يكن يحصيها على حقيقتها إلا الله.

والصبر ليس ألا تبكي؛ فقد بكى الأنبياء والصالحون. وليس ألا تحزن؛ فالحزن من طبيعة القلب. إنما الصبر ألا يتحول الحزن إلى قطيعة مع الله، وألا يتحول الألم إلى إذن بالمعصية.

يمكن للعين أن تدمع، والقلب أن يصبر.

ويمكن للروح أن تتوجع، واللسان أن يقول ما يرضي الله.

إن ﴿الصَّبْرَ﴾ لا يعد المؤمن بحياة بلا جراح، بل يمنحه قدرة على ألا تصبح جراحه أبواباً يخرج منها من إيمانه.

الفصل الحادي عشر

﴿الرَّحْمَةُ﴾: العناية التي تسبق استحقاق الإنسان

يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ما أوسع هذه الكلمة، وما أضيق تصوراتنا عنها!

نرى الرحمة غالبًا في العطاء الذي نطلبه، وفي الشفاء بعد المرض، وفي انكشاف الشدة. لكن رحمة الله أوسع من الصور التي توافق رغباتنا؛ فقد تكون في المنع كما تكون في العطاء، وفي الإيقاظ المؤلم كما تكون في التسكين، وفي تأخير ما نحب حتى تنضج نفوسنا لاستقباله.

الرحمة ليست استجابةً لحاجة الإنسان بعد أن تظهر فقط؛ إنها التي أحاطت به قبل أن يعرف حاجته. بها خُلق، وبها رُزق، وبها دُلَّ على الله، وبها فُتِح له باب التوبة كلما ابتعد.

قبل أن يكون للإنسان عملٌ يستحق به، كانت رحمة الله قد هيأت له الوجود.

وقبل أن يعرف كيف يدعو، كانت النعم تنزل عليه.

وقبل أن يبكي من ذنبه، كان الباب مفتوحًا لعودته.

وفي قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ صورةٌ تحيط بالوجود كله. كل ما تراه وصل إليه أثرٌ من رحمة الله: في خلقه، أو رزقه، أو إيماله، أو هدايته. لا يعني ذلك تساوي الخلق في الرحمة الخاصة والجزاء، فقد قال بعدها: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ لكن أصل السعة يفتح للرجاء أفقًا لا يجوز للعبد أن يغلقه على نفسه.

إن اليأس من رحمة الله ليس تواضعًا. قد يتخفى وراء شعورٍ بالذنب، لكنه سيء الظن بسعة المغفرة. ليس معنى حسن الرجاء أن يصر الإنسان على معصيته ويطلب النجاة بلا توبة؛ بل أن يعلم أن ذنبه . مهما عظم . لا يعظم على عفو الله إذا صدق في الرجوع.

الذنب يقول له: لقد ابتعدت.

والرحمة تقول: باب العودة لم يُغلق.

الشیطان يريه كثرة سقطاته ليمنعه من القيام، والوحي يريه سعة ربه ليعيده إلى الطريق.

ومن أعظم جمال كلمة الرحمة أنها لا تلغي العدل؛ فالله رحيمٌ لا يظلم، وعادلٌ لا تخلو أحكامه من الحكمة. وقد تكون الرحمة بالمظلوم أن يُؤخذ له حقه من ظالمه، فلا يصح أن يُطلب منه التنازل باسم الرحمة بينما يُترك البغي قائمًا. الرحمة التي تهدر الحق عاطفةً مختلة، أما رحمة الله فتضع كل شيء في موضعه.

وحين قال الله عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، جعل الرسالة نفسها رحمة. الأوامر رحمة، وإن شقت على الهوى. والنواهي رحمة، وإن رآها المنفلت قيودًا. والوعد رحمة، والوعيد رحمة؛ لأنه يوقظ الإنسان قبل أن يبلغ موضعًا لا تنفع فيه اليقظة.

ليس الطبيب الرحيم من يخفي المرض حتى لا يحزن المريض، بل من يكشفه له ويقوده إلى العلاج. وكذلك إنذار القرآن: قاسٍ على الغفلة، رحيمٌ بالإنسان.

والعبد الرحيم ليس من يملك حلول آلام الناس كلها، بل قد يكون ممن لا يزيدها. يختار كلمة لا تكسر، ويستر عيبًا لا مصلحة في كشفه، ويعذر ضعفًا، ويمسح على قلب لا يستطيع تغيير واقعه. نحن لا نملك خزائن الرحمة، لكننا نستطيع أن نكون مجاري صغيرة لها في حياة الآخرين.

﴿الرَّحْمَةُ﴾: كلمة تجعل الوجود أقل وحشة، والتوبة ممكنة، والألم قابلاً لأن يحمل معنى، والعبد قادراً على أن يعود مهما طال الطريق.

الفصل الثاني عشر

﴿الْحَسْرَةُ﴾: الألم حين يأتي بعد فوات الإمكان

يقول الله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

الحسرة ليست حزنًا عاديًّا؛ إنها حزنٌ يشتد حين يرى الإنسان ما فاتته، ويعلم أنه كان يستطيع أن يختار غير ما اختار، ثم لا يجد طريقًا إلى استعادة الفرصة.

إنها ألم الحقيقة حين تصل متأخرة.

في الدنيا قد يندم الإنسان فيُصلح، ويخطئ فيعتذر، ويبتعد ثم يعود. ما دام في العمر بقية، يمكن للندم أن يتحول إلى توبة، وللحزن أن يصير قوةً تدفع نحو التغيير. أما يوم الحسرة فقد ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ ظهرت الحقيقة، لكن زمن الاستجابة لها انتهى.

وهنا يكمن عذاب الحسرة: ليست في الجهل بما كان ينبغي فعله، بل في المعرفة الكاملة بعد فوات القدرة عليه.

يرى الإنسان كلمة الخير التي كان يستطيع قولها فسكت.

ويرى صلاةً نادته فاستثقلها.

ويرى مظلمةً كان يمكنه ردها فأجل.

ويرى عمرًا ظن أنه طويل، فإذا هو لحظاتٌ أغلقت صفحاتها.

ولفظ ﴿يَا حَسْرَةً﴾ يصور الحسرة كأنها شيءٌ يُنادى لشدة حضورها، وكأن كل ما في المشهد قد امتلأ بها حتى لم يبق إلا أن يقال لها: هذا أوانك، فاحضري.

وفي قوله: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ أسفٌ على حالهم؛ جاءتهم الرسل بالنجاة، فلم تكن استجابتهم إلا الاستهزاء: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. لم تكن الطريق مخفية، لكن السخرية حجبهم عنها. ضحكوا في موضعٍ كان ينبغي أن يتفكروا فيه، حتى انقلب ضحكهم حسرة.

إن أكثر ما يصنع الحسرة الكبرى ليس دائماً افتقار الإنسان إلى الفرص، بل سوء نظره إليها وهي بين يديه. قد تمر عليه النعمة في هيئةٍ مألوفة فلا يعرفها إلا بعد زوالها، ويكون قريباً من الخير ثم يؤجله حتى يغلق الباب.

ولهذا أُنذرنا الله بيوم الحسرة قبل أن يأتي. ذكرها الآن كي تتحول الحسرة المتوقعة إلى يقظةٍ حاضرة. إن وظيفة الإنذار ألا يخيفنا بالمستقبل فقط، بل أن ينقذ الحاضر من أن يصبح مادةً للندم.

اسأل نفسك قبل كل اختيار: هل يمكن أن أرى هذه اللحظة يوماً وأتمنى لو أنني صنعت غير ما أصنع؟

هذا السؤال لا يجعل الحياة خوفاً دائماً، بل يمنحها وعياً. يدفعك إلى أن تقول كلمة الحب قبل أن يفقدها صاحبها، وأن ترد الحق قبل أن يصير ديناً في عنقك، وأن تتوب قبل أن يتحول التسويف إلى خاتمة.

والحسرة ليست على ما لم نملك؛ فلا يتحسر العاقل على شيءٍ لم يكن في وسعه. الحسرة الحقيقية على قدرة ضُيعت، وعمرٍ بُدِّد، ونورٍ ظهر ثم أُعْرض عنه.

ما دام القلب ينبض، فإن «يوم الحسرة» لم يأتِ بعد.

وما دام باب التوبة مفتوحًا، فكل حسرةٍ في الدنيا يمكن أن تصبح بدايةً؛ إذا دفعت صاحبها إلى الله.

أما الحسرة التي لا بداية بعدها، فهي التي جاء القرآن ليحمينها منها.

الباب الرابع

رَشَاقَةُ الْحَذْفِ وَجَمَالُ مَا لَمْ يُقَلَّ

ليس البيان في كثرة الكلمات، بل في أن يعرف الكلام متى يقول، ومتى يترك للسكوت مهمة لا تستطيع العبارة أن تؤديها.

وفي القرآن مواضع يُحذف فيها ما يستطيع الذهن أن يقدره، أو يُترك تفصيل الحدث لأن التصريح به يضيق سעתه، أو يُطوى زمنٌ طويل في انتقالٍ قصيرة، أو يُعرض عن الجواب لأن السؤال نفسه لا يستحق أن يُمنح شرف الإجابة.

ذلك الحذف ليس نقصاً في المعنى، بل توسيعٌ له. فحين يُذكر الشيء محدداً تقف الصورة عند حدوده، وحين يُترك للسياق والمخيلة قد يستوعب من الأحوال ما لا تسعه عبارة واحدة.

إن الصمت القرآني ليس فراغاً؛ إنه معنى لم يُكتب بالحروف، لكنه حاضرٌ في النظم.

وقد تكون البلاغة فيما حُذف أشد منها فيما ذُكر؛ لأن النفس تشارك عندئذٍ في بناء المشهد، وتستدعي من المعاني بقدر وعيها وتأملها. فلا تتلقى صورةً مغلقة، بل تدخل فضاءً مفتوحاً من الإيحاء.

الفصل الأول

﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: حين يكون الهول أكبر من الوصف

يقول الله تعالى في خبر فرعون وجنوده: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ
فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

لم يقل: فغشيهم ماءً عظيم، ولا: أطبقت عليهم الأمواج، ولا: غرقوا جميعاً
في مشهدٍ مروّع؛ بل قال:

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

تركت الآية ما وقع بلا تفصيل، وكأن ما جرى أعظم من أن يحتويه وصفٌ
محدد. فمهما رسمت الكلمات من ارتفاع الموج، وصوت الصراخ،
واضطراب الخيل، وسقوط الجنود، فإن الحقيقة أوسع وأهول.

جاء اسم الموصول ﴿مَا﴾ ستاراً رقيقاً يحجب المشهد، لكنه بحجبه يجعله
أشد حضوراً. إنك لا ترى التفاصيل، فتندفع مخيلتك إلى تقديرها، وكلما
حاولت أن تملأ الفراغ أدركت أن العبارة القرآنية تركته لأنه لا يمتلئ.

وفي تكرار الفعل ﴿غَشِيَهُمْ﴾ إحاطةٌ مكثفيةٌ بذاتها. لقد غشيهم شيءٌ لا يحتاج
إلى أن يسمى، لأن أثره معلوم ونهايته حاسمة. كأن الهول صار هو
التعريف، فلا مزيد بعده.

كان فرعون قبل لحظات يملك لغةً صاحبةً في الطغيان: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾،
و﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾. كان يملأ أسماع الناس بادعاءاته، ويستخدم الكلمات
ليصنع لنفسه حجماً أكبر من حقيقته. فلما جاء الهلاك لم يمنحه القرآن وصفًا

طويلاً؛ اختصر نهايته، كأن الطاغية الذي استهلك أعمار الناس بضجيجه لا يستحق عند سقوطه إلا كلماتٍ قليلة.

وهذه مفارقةٌ بديعة: يتكلم الباطل طويلاً، لكن نهايته قصيرة.

لقد اتبع فرعون موسى بجنوده، ظاناً أن البحر الذي انشق للمؤمنين طريقٌ مفتوحٌ لقوته أيضاً. رأى الأثر ولم يرَ العناية التي صنعتها. حسب أن الطريق الممنوح لأهل الإيمان حقٌّ مادي يستطيع كل من وصل إليه أن يستخدمه.

لكنه لم يفهم أن ما كان للمؤمنين نجاةً صار للطاغين هلاكاً.

البحر واحد، والطريق واحد، غير أن العلاقة بالله مختلفة.

ثم أطبق الماء، وسقطت الفروق التي صنعتها السلطة: الملك والجندي، الأمر والمأمور، صاحب التاج وحامل السلاح؛ غشيم جميعاً ما غشيمهم. لم تمنحهم الكثرة حصانة، ولم يحولهم التنظيم العسكري إلى قوةٍ أمام أمر الله.

إن الحذف هنا لا يوسع صورة الهلاك وحدها، بل يحفظ للآية سرعتها. فالمشهد في حركةٍ متعاقبة: اتباع، ثم غشيان، ثم نهاية. لا استراحة سردية تتيح للطاغية أن يحتفظ ببطولته الزائفة؛ ينقلب من مطاردٍ إلى غريق في لمحةٍ من النظم.

﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: عبارةٌ تقول بالصمت ما تعجز عنه التفاصيل، وتترك فراغاً لا يملؤه إلا هول المصير.

الفصل الثاني

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾: الخطوات التي طواها الشوق

يقول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ يَا مُوسَى
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

كان موسى قد قال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾. ثم ينتقل السياق مباشرةً
إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾.

أين الطريق الذي قطعه؟

كم كانت المسافة؟

ماذا رأى وهو يقترب؟

وماذا دار في نفسه بين لحظة رؤية النار ولحظة بلوغها؟

لا يخبرنا القرآن؛ لأن هذه التفاصيل ليست هي الغاية. طُوي الطريق كله،
كأن الخطوات ذابت أمام عظمة الموعد. ما قيمة المسافة حين يكون في
نهايتها نداء الله؟

إن الحذف هنا يسرّع حركة السرد، فينقلنا من التطلع إلى الوصول دون
أن يبدد التوتر في جزئيات الطريق. كان موسى يذهب يطلب خبراً أو جذوةً
من النار؛ ولم يكن يعلم أن الخطوة التالية في حياته ستخرجه من شأن المسافر
إلى مقام الرسول.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾.

ما أسرع التحول! وصل إلى المكان، فإذا الوجود الذي يعرفه يتغير. لم تعد النار هي القضية، ولا الطريق، ولا البرد، ولا الحاجة إلى القبس. جاءه النداء باسمه: ﴿يَا مُوسَى﴾.

إن العناية التي قادتته في صمت تكشف عن نفسها فجأةً.

وهكذا تقع التحولات الكبرى أحياناً: يمشي الإنسان نحو حاجةٍ يعرفها، بينما يسوقه الله إلى معنى لا يعرفه. تكون خططه صغيرةً، لكن القدر ينتظره بشيءٍ أكبر. وحين يصل، يدرك أن الطريق الذي ظنه عادياً كان جزءاً من اصطفاءٍ ممتد.

وقد يكون في حذف تفاصيل السير إشارةً شعوريةً إلى أن الطريق إلى الموعد كان أقصر في إحساس موسى من أن يُفصّل. فالإنسان حين يلمح أنساً في الوحشة لا يحصي خطواته نحوه.

لكن القرآن حين طوى الطريق المادي، فتح الطريق الروحي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾. انتهت مسافة الأرض وبدأت مسافة الرسالة؛ من الخوف إلى الاصطفاء، ومن رعي الغنم إلى مواجهة فرعون، ومن البحث عن قبسٍ صغيرٍ إلى حمل نور الوحي.

كم من مسافاتٍ طويلةٍ في أعمارنا يختصرها الله حين تبلغ غايتها! سنواتٌ من التربية والتجربة والانكسار تمر، ثم تأتي لحظةً واحدةً تكشف لماذا كان علينا أن نعبثها كلها.

نحن نعيش التفاصيل، أما القرآن فيرينا المعنى الذي كانت تتجه إليه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾: اختُصر الطريق، لأن ما بعد الوصول أكبر من كل ما سبقه.

الفصل الثالث

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: الصمتُ عند ذروة الامتحان

يقول الله تعالى عن إبراهيم وابنه عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۖ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

وصل المشهد إلى اللحظة التي لا يحتمل فيها قلب الأبوة مزيدًا من الوصف. أبُّ تلقى الأمر بذبح ابنه، وابنٌ قال في يقين: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾. ثم مضيا معًا إلى مقام التنفيذ.

قال القرآن: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ﴾.

لم يقل: فلما أسلم إبراهيم؛ لأن الابن لم يكن شيئًا سلبيًا في المشهد. كلاهما سلّم أمره لله: الأب يجاهد حبّه، والابن يقدم حياته. إرادتان بشريتان التقتا عند إرادة الله.

ثم قال: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي أضجعه على جانب وجهه استعدادًا لتنفيذ ما أُمر به. وهنا يبلغ المشهد ذروته، ويتوقع السامع جواب «لما»: ماذا حدث بعد أن أسلما وتلاه للجبين؟

لكن الجواب لا يأتي بصورته النحوية المتوقعة؛ ينتقل السياق مباشرةً إلى النداء:

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

كأن الحدث الذي كان يخشاه القلب لم يؤذن له بالدخول في العبارة. وصل الامتحان إلى غايته عند تمام الاستسلام، فلم تعد إراقة الدم مطلوبة. فالمقصود لم يكن دم الابن، بل انكشاف مقام الأب والابن في العبودية.

وفي حذف الجواب مساحةً من الهيبة. يتوقف الزمن لحظةً عند الجبين، وتبقى السكين خارج الصورة، ثم يأتي النداء من السماء في اللحظة التي صار فيها الأمر يقيناً في القلب وفعلاً في الواقع.

إن البلاغة هنا لا تصف التوتر؛ بل تصنعه.

يدخل القارئ إلى الفراغ بين ﴿لِلْجَبِينِ﴾ و﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾، فيشعر أن العالم كله ينتظر. ثم يأتي النداء رحمةً لا بالأب والابن فقط، بل بقلب القارئ أيضاً.

وقد قال الله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، مع أن الذبح لم يقع؛ لأن حقيقة الامتثال قد وقعت. كان إبراهيم مستعداً أن يعطي الله أحب ما لديه، ولم يبق في قلبه اعتراضٌ يحول بين الأمر والتنفيذ.

إن الله يعلم القلوب قبل أفعالها، لكنه يبتلي عباده ليظهر صدقهم في واقعهم، وتقوم الحجة، ويتحقق لهم من مقامات العبودية ما لا تصنعه الدعوى وحدها.

كم هو سهل أن يقول الإنسان: ليس في قلبي أحب إليّ من الله. لكن الامتحان وحده يكشف ترتيب المحبوبات حين تتعارض.

وليس معنى ذلك أن كل ما نحبه سيُنزع منا؛ بل إن القصة تعلمنا ألا نعبد عطايا الله من دون الله. فإذا أخذت النعمة مكان المنعم في القلب، جاءت التربية لتعيد الترتيب.

لقد عاد الابن إلى أبيه، لكنه عاد بعد أن تحرر حُبُّه من العبودية. لم يعد إبراهيم يحبه في مواجهة أمر الله، بل يحبه نعمةً من الله وتحت أمره.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ﴾: هناك انتهى الامتحان في حقيقته، وإن ظل المشاهد لحظاتٍ عند الجبين. فالله لا يريد تعذيب قلوب أوليائه، وإنما يريد أن يطهرها حتى لا يبقى فيها ما ينازع مقامه.

الفصل الرابع

﴿وَلَوْ تَرَى﴾: مشهدٌ ترك جوابه لهوله

تتكرر في القرآن صيغة ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ في مشاهد القيامة والعذاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يُقْفَوْنَ عَلَى النَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾.

يسوق القرآن الشرط، ثم يترك جوابه محذوفًا.

لو ترى... ماذا؟

لرأيت أمرًا عظيمًا.

لرأيت ما لا تحيط به العبارة.

لرأيت مشهدًا يهز القلب ويجاوز كل وصف.

إن حذف الجواب هنا يفتح باب التهيل؛ لأن أي جوابٍ مذكور سيحدد أثر الرؤية في معنى واحد، أما تركه فيجعل كل أثرٍ ممكنًا حاضرًا: لرأيت هولًا، وعجبًا، وخزيًا، وحسرةً، وعدلاً نافذًا.

كأن اللغة تصل إلى حافة المشهد ثم تصمت، لا عجزًا في البيان، بل لأن الصمت نفسه أبلغ.

وفي عبارة ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ نقلٌ للمخاطب من السماع إلى المشاهدة. أنت تقرأ خبرًا عن الغيب، لكن الأسلوب يقربه حتى يكاد يضعه أمام عينيك. لا يقول:

ولو تعلم، بل: لو ترى؛ لأن بعض الحقائق حين تُرى تسقط أمامها كل المجادلات.

في الدنيا يستطيع الظالم أن يصنع روايةً تبرر ظلمه، وأن يجمع من يصفقون له، وأن يخفي آثار جريمته خلف الكلمات. لكن حين يكون في غمرات الموت، وحين يُوقف على النار، تنكشف الحقيقة بلا وسيط.

وقد يُحذف الجواب لأن المخاطب لا يملك الآن طاقةً لرؤية المشهد على حقيقته. الرحمة نفسها اقتضت أن يأتيه وصفٌ يحتمله، وإشارةً توقظه، دون أن تُكشف له أهوال الغيب كما ستُكشف هناك.

إننا لا نعرف كم تحمينا الحجب.

نحن نطلب أحيانًا أن نرى كل شيء، ولا ندرك أن من رحمة الله أن جعل بيننا وبين بعض الحقائق ستارًا، ثم أخبرنا منها بما يكفي للهداية. فالمطلوب ليس أن نشاهد النار الآن، بل أن نصدق خبر الله عنها ونغير طريقنا.

وتحمل الصيغة عتابًا خفيًا للغافل: لو رأيت ما ينتظرك، هل كنت ستبقى على إعراضك؟ لو رأيت لحظة انكشاف الأعمال، هل كنت ستستصغر الكلمة والنظرة والمظلمة؟ لو رأيت الذين سخرت من إيمانهم وقد نجوا، ورأيت نفسك حيث أوصلك تكبرك، فكيف سيكون ندمك؟

لكن السؤال الأهم ليس: ماذا كنت ستفعل لو رأيت؟

بل: ماذا ستفعل وقد أخبرك مَنْ لا يخلف خبره؟

الإيمان هو أن يمنحك خبر الله من اليقين ما يجعل الغيب مؤثراً في اختيارك، دون أن تضطر إلى معاینته. أما إذا لم يتحرك الإنسان إلا حين يرى، فقد جاءت الرؤية بعد انتهاء زمن الاختيار.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾: عبارة معلقة، لكن تعليقها هو تمام معناها؛ تفتح نافذةً على الهول، ثم تترك القلب وحده أمام ما لا تستطيع الكلمات أن تحده.

الفصل الخامس

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾: الجبُّ الذي غاب في فجوة الكلام

يقول الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

تهيأت الجريمة في نفوس الإخوة، وأقنعوا أباهم أن يرسل يوسف معهم، وأظهروا له الودَّ وهم يخفون ما دبروه. ثم جاء وقت التنفيذ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾.

كان المتوقع أن يأتي جواب «لما» فيقال: فعلوا به كذا، أو ألقوه في الجب. لكن الجواب حُذف، وانتقل السياق من اجتماعهم على الجريمة إلى الوحي الذي نزل على يوسف في قاع المحنة.

وبين الذهاب والوحي فجوةٌ صامتة، تختبئ فيها تفاصيل لا يكاد القلب يحتملها.

كيف تغيرت وجوههم حين غابوا عن عين أبيهم؟

كيف انتقلوا من صورة الإخوة إلى قسوة المتآمرين؟

هل استغاث بهم يوسف؟

هل تعلق بثياب أحدهم؟

كيف واجه الطفل لحظة إدراكه أن الذين يفترض أن يحمّوه هم الذين يدفعونه إلى الجب؟

لا يفصل القرآن ذلك. يترك الجريمة في ظلمة الحذف كما تركوا يوسف في ظلمة الجب. وكأن الصمت نفسه غياباً لفظية تختفي فيها التفاصيل.

لكن المفاجأة أن السياق لا يجعل صوت الإخوة هو الصوت الأخير في المشهد؛ فقبل أن يستقر يوسف في قاع خوفه، يأتيه الوحي: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لقد أرادوا للجب أن يكون نهاية القصة، فجعل الله فيه أول بشارات مستقبلها.

هم ينظرون إلى طفلٍ تخلصوا منه، والله يخاطب نبياً سيقف أمامهم يوماً وهم لا يعرفونه.

هم يرونه في الأسفل، والوحي يريه لحظة سيعلو فيها فوق تديرهم.

هم يصنعون الحاضر القصير، والله يفتح له نافذة على النهاية.

وهذه من أعظم وظائف الوعد في المحنة: لا يزيل ألم اللحظة دائماً، لكنه يمنعها من أن تفسر القصة كلها. كان يوسف في الجب حقيقةً، لكنه لم يكن حقيقة مستقبله. الظلمة قائمة، غير أنها لا تملك خاتمة السيرة.

ما أكثر ما يحكم الإنسان على نفسه من قاع اللحظة! إذا أُلقي في جب الخذلان ظن أن الهاوية أصبحت اسمه ومصيره. يرى الجدران القريبة ولا يرى الطريق الذي يشقه الله في الغيب.

لكن الله لا يعرف أوليائه بالمواضع التي ألقاهم الناس فيها، بل بالغاية التي يعدمهم لها.

ولذلك تجاوز السياق تفصيل السقوط إلى وعد النهوض. لم يمنح الجريمة مساحةً أكبر من قدرها، بل أسرع إلى المعنى الذي سيبقى بعدها.

إن حذف جواب ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ ليس فراغاً في قصة يوسف؛ إنه رفضٌ لأن تتحول القسوة إلى مركز الحكاية. فالحجب محطّة، أما العناية فهي القصة.

الفصل السادس

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: الخوف الذي خرج بلا تفصيل

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

دخلت الملائكة على إبراهيم عليه السلام في صورة ضيوف، فقرَّب إليهم العجل، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة. ثم عرّفوه بحقيقتهم، وبشّروه بالولد، فانقلب الموقف.

ويعبر القرآن عن هذا التحول بقوله: ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾.

لم يقل: اطمأن إبراهيم، بل صوّر الخوف شيئاً كان حاضراً ثم غادر. فالروع يدخل القلب كأنه كائنٌ يملأه، ثم يذهب حين تنكشف الحقيقة.

وفي ذلك لطفٌ بالغ في تصوير المشاعر: ليس الخوف دائماً جزءاً من طبيعة الإنسان، وإن بدا أثناء شدته كأنه استولى عليه إلى الأبد. إنه عارضٌ يأتي ويذهب، ولا يملك البقاء إلا بقدر ما تبقى أسبابه أو صورها في النفس.

وقد ذكر القرآن ذهاب الروع، لكنه لم يفصل كيف خرج، ولا كم استغرق انتقال إبراهيم من الخوف إلى الطمأنينة. يكفي أن جاءه الخبر الصادق من عند الله، فعادت الأشياء إلى مواضعها.

ثم لم تكد البشْرَى تصل حتى تحرك قلبه رحمةً بقوم لوط: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وهنا نرى معدن إبراهيم. كان قبل لحظاتٍ خائفًا على نفسه، فلما أمِن لم يستغرق في راحته، بل حمل همَّ قومٍ جاء العذاب لاستئصالهم. تجاوز خوفه الشخصي إلى الشفقة على الآخرين.

إن بعض الناس إذا نجا من الخطر نسي من بقي فيه، كأن الألم لا يكون حقيقياً إلا حين يمس جسده. أما القلوب النبوية فلا تجعل السلامة الخاصة نهاية اهتمامها؛ ما إن يذهب عنها الروع حتى تتحول طاقتها إلى رحمة.

وقد وصفه الله بعد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾. فجذاله لم يكن اعتراضاً على حكم الله، وإنما اندفاع رحمةٍ من قلبٍ حلِيمٍ يرجو أن يُمهّل القوم أو يكون فيهم من يستحق النجاة.

لكن الحكم قد قُضي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. فحتى الرحمة البشرية الطاهرة تقف عند علم الله وحكمه؛ لأن الله أعلم بمن بلغ في الظلم حدًّا لا ينفع معه الإمهال.

إن في الآية رحلةً شعورية واسعة: خوف، فطمأنينة، فبشرى، فشفقة، فحوار، فتسليم. ومع ذلك عبرها القرآن في كلماتٍ قليلة؛ لأن الكلمة الدقيقة لا تحتاج إلى الإطالة كي تنقل حركة القلب.

﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: كأن الخوف ضيفٌ ثقيلٌ غادر، فاسترد القلب طبيعته الأولى؛ الرحمة بالخلق والإنابة إلى الله.

الفصل السابع

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: المفاجأة التي لا تُمَهِّل أهل النار

يقول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

المشهد حركةٌ قسرية منذ بدايته: ﴿وَسِيقَ﴾. لم يذهبوا مختارين، بل دُفعوا إلى المصير الذي أنكروه. ثم تتواصل الحركة حتى يبلغوا النار:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

جاء فتح الأبواب بلا واوٍ فاصلة، فكأن الوصول والفتح حدثان متلاحقان لا مهلة بينهما. ما إن يحضروا حتى تفاجئهم الأبواب مفتوحة، ويظهر المصير الذي كان في الدنيا غيبًا يجادلون فيه.

لا انتظار، ولا تكريم، ولا لحظة رجاء عند العتبة.

وتضاعف المفاجأة عبارة خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

السؤال لا يطلب معلومة؛ إنه يقيم الحجة. كل ما يروونه الآن سبق أن جاءهم خبره. النار ليست مفاجأة من جهة البيان، وإنما صارت مفاجأة لأنهم عاشوا كأن الإنذار لم يصل.

قالوا: ﴿بَلَى﴾. كلمةٌ واحدةٌ تهدمُ أَعْدَارَ العمر كله. نعم، جاء الرسل. نعم، تُلِيَتِ الآيات. نعم، وقع الإنذار. لكن الحقيقة التي اعترفوا بها هناك لم تتحول إلى عملٍ حين كان الاعتراف نافعا.

ويكتسب فتح الأبواب معنى أشد حين نقارنه بمشهد أهل الجنة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾. جاءت الواو في مقام الجنة، فأبطأت الانتقال قليلاً، ومنحت المشهد سعةً وتهيؤاً واستقبالاً. وقد ذكر أهل البلاغة في هذه الواو وجوهاً، والأحوط أن يُنظر إلى أثرها السياقي من غير جزمٍ بتكلفٍ لا يدل عليه النص.

في النار: وصولٌ يعقبه فتحٌ مفاجئ.

وفي الجنة: وصولٌ تحيط به كرامة الاستقبال، وأبوابٌ مفتحة، وخزنة يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

هناك سؤال توبيخ.

وهنا تحية سلام.

هناك اعتراف بعد فوات العمل.

وهنا إعلان طيبٍ أهل أصحابه للدخول.

إن حرفاً واحداً قد يغير إيقاع المشهد، لكن جمال القرآن لا يقوم على الحرف معزولاً؛ بل على اجتماعه مع السياق كله. فالأفعال، والحوارات، وطريقة السوق، وكلام الخزنة، تتعاون على إقامة الفارق بين المصيرين.

والإنسان في الدنيا يسير إلى أحد البابين، وإن كان لا يرى حركته. كل يوم يقربه، وكل اختيارٍ يحدد جهة المسير. قد يظن أنه ثابتٌ في مكانه، لكن العمر يسوقه في صمت.

والسعيد من سأل نفسه قبل أن يصل: أيُّ تحيةٍ أعدّ لها قلبه؟

الفصل الثامن

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: الواو التي اتسع فيها الاستقبال

يقول الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

قد يستوقفنا فعل ﴿وَسِيقَ﴾ مع أهل الجنة، فالسوق يُظن فيه الإكراه، لكن السياق يطهره من هذا المعنى؛ إنه حشدٌ كريم، وتوجيهٌ إلى دار النعيم، وانتقال جماعاتٍ مؤتلفة إلى الموعد الذي طال رجاؤها له.

لم يدخلوا أفرادًا متقطعين، بل ﴿زُمَرًا﴾. رفقة الطاعة التي اجتمعت في الدنيا تلتقي عند أبواب الجنة. الذين أعان بعضهم بعضًا على الحق لا تنتهي أخوتهم عند القبور؛ بل يمضون جماعاتٍ إلى دار السلام.

ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

تمنح الواو العبارة امتدادًا يناسب لحظة الاستقبال، لكن سر الجمال لا يُحصر فيها وحدها. المشهد كله مبني على الإكرام: الجنة غاية المسير، والخزنة يستقبلونهم بالسلام، ويشهدون لهم بالطيب، ويأذنون لهم بخلودٍ لا انقطاع له.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

هذه أول كلمة تُستقبل بها الأرواح التي أنهكتها معارك الدنيا. سلامٌ من كل خوف، ومن كل فراق، ومن كل مرض، ومن كل خيانة، ومن كل عينٍ حاسدة، ومن كل قلبٍ يحمل شرًّا.

ليس سلامًا عابرًا يقال عند اللقاء ثم ينتهي أثره؛ إنه تعريف الدار التي يدخلونها. كل ما فيها سلام، وكل ما كان يقلقهم صار وراءهم إلى الأبد.

ثم يقول الخزنة: ﴿طِبُّتُمْ﴾.

ما أوسع هذه الكلمة! طابت عقائدكم من الشرك، وأعمالكم من الفساد، وقلوبكم من الإصرار، وتبتم مما علق بكم من الذنوب، فصرتم أهلًا لدارٍ طيبة. والجنة لا يدخلها خبثٌ مستقر، لأنها دار نقاءٍ كامل.

وقد لا يرى المؤمن نفسه طيبًا إذا نظر إلى تقصيره، لكنه يدخل برحمة الله بعد أن آمن وجاهد وتاب وطهره ربه. ليست ﴿طِبُّتُمْ﴾ مدحًا للعصمة التي لا تكون للبشر، بل شهادةٌ بنهاية طريقٍ من الإيمان والتركية والمغفرة.

ثم تأتي الكلمة التي كانت كلُّ أفراح الدنيا عاجزةً عن ضمائها: ﴿خَالِدِينَ﴾.

في الدنيا لا يكتمل سرورٌ إلا ويبدأ الخوف من زواله. كل لقاءٍ مهددٌ بالفراق، وكل صحةٍ بالمرض، وكل شبابٍ بالهرم. أما نعيم الجنة فخارجٌ عن قانون الانقضاء.

الخلود ليس إضافةً إلى النعمة؛ إنه جزءٌ من كمالها. فالجمال الذي لا تخشى فقدته أصفى من جمالٍ تعد أيامه.

وهكذا تتسع الواو الصغيرة داخل بناءٍ كامل من التكريم. لا تعزلها عن السياق فتثقلها بما لا تحتمل، ولا تمر بها كأنها لا تؤثر في الإيقاع. إنها جزءٌ من تمهل المشهد عند العتبة التي تنتهي إليها رحلة التقوى.

هناك يكتشف المؤمن أن كل مرةٍ حبس فيها نفسه عن الحرام، وكل صلاةٍ قام إليها وهو مثقل، وكل ظلمٍ احتمله دون أن يبيع دينه، كانت خطوةً نحو هذا النداء:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

الفصل التاسع

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: جملةٌ حذف منها الفعل وبقي الموقف

يقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام بعد أن عاد أبنأوه
بقميص يوسف ملطخاً بدمٍ كذب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

لم يقل: فسأصبر صبراً جميلاً، ولا: فأمرني صبرٌ جميل؛ بل حذف ما يمكن
تقديره، ووضع أمامنا الكلمتين وحدهما:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

كأن الفاجعة أكبر من أن تسترسل معها العبارة، وكأن يعقوب جمع شتات
نفسه في اسمٍ واحد: الصبر. لم يدخل في جدالٍ طويل، ولم يطارد تفاصيل
الرواية الملفقة، ولم يمنح الكذب فرصةً ليستهلك ما بقي من قوته. عرف
الحقيقة بقلب الأب وبنور النبوة، ثم اختار موقفه.

والفاء تحمل سرعة الانتقال من انكشاف الخديعة إلى اتخاذ القرار: ما دام
الأمر قد وقع، ولا سبيل في اللحظة إلى استرداد يوسف، فليس أمام القلب
المؤمن إلا أن يحفظ علاقته بالله من أن يفسدها الألم.

لكن الصبر هنا لم يأتِ مطلقاً؛ بل وُصف بالجمال.

وما الصبر الجميل؟

ليس صبرًا بلا حزن؛ فقد ابيضت عينا يعقوب من الحزن. وليس صبرًا يمنع الشكوى إلى الله؛ فقد قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. إنما جماله في أنه لا يتحول إلى اعتراضٍ على الله، ولا إلى كلامٍ يناقض الرضا والإيمان، ولا إلى ظلمٍ للناس بسبب ما أصاب القلب من ألم.

يمكن للإنسان أن يبكي ويكون صابرًا.

وأن يشناق ويكون راضيًا.

وأن يشعر بأن قلبه يكاد يتمزق، ثم لا يقول عن ربه إلا ما يليق برحمته وحكمته.

الصبر الجميل لا يجمّل المصيبة، ولا يدّعي أن الفقد لا يؤلم. إنه يجمّل موقف الإنسان منها؛ يحفظ لسانه من السخط، وقلبه من اليأس، وسلوكه من الانحراف.

ثم قال يعقوب: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾. لأنه يعرف أن الصبر ليس بطولاً ذاتية. لا يستطيع القلب أن يحمل هذا الثقل بقوته وحدها؛ يحتاج إلى مددٍ من الله في كل لحظة.

ولم يقل: والله المعين فقط، بل جاء باسم المفعول: ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾؛ فهو الذي تُطلب منه المعونة، وتوضع عنده الأحمال، ويُرجع إليه حين تعجز النفس عن حمل نفسها.

إن البشر يقولون للمبتلى: اصبر، ثم يمضون. أما الله فيأمره بالصبر ويعينه عليه، ويعلم مقدار ما يخفيه صدره، ويكتب له أجر كل لحظةٍ قاوم فيها الانهيار.

وجاءت العبارة الأخيرة: ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. لم يسمّ كذبهم حقيقة، بل وصفًا صدر منهم؛ لأن القول لا يغيّر الواقع. القميص الملطخ لا يصنع ذنبًا، والدم الكاذب لا يحوّل القصة إلى حقيقة.

ما أكثر ما يتألم الإنسان من «وصف» الناس لما حدث، لا من الحدث وحده! يصنعون روايةً ظالمة، ثم يكررونها حتى تبدو كأنها حقيقة. لكن يعقوب يرد الأمر إلى الله: هو المستعان على ما يصفون، وهو الذي يعلم القصة كما وقعت، لا كما رواها المتهمون.

﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾: حُذِفَ الفعل، كأن الصبر لم يعد فعلًا مؤقتًا، بل صار المقام الذي سيقوم فيه يعقوب حتى يأتي الله بالفرج.

الفصل العاشر

﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: الطريقُ الذي أخفاه المكر

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

بين إلقاء يوسف في الجب وعودة إخوته إلى أبيهم طريقٌ كامل لم يذكر القرآن تفاصيله. لم يخبرنا كيف غادروا المكان، ولا كيف اتفقوا على ألفاظ الرواية، ولا كيف لطخوا القميص بالدم، ولا كيف تدربت وجوههم على الحزن.

طُوي كل ذلك في انتقالةٍ واحدة:

﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

لكن الكلمات القليلة تكشف ما أخفاه الطريق.

اختاروا العشاء؛ لأن الظلام يعين على ستر الملامح، ويمنح الكذب مساحةً لا يمنحها الضوء. وكأنهم لم يأتوا بخبرٍ يحتاج إلى البرهان، بل بمشهدٍ أرادوا له أن يسبق السؤال: دموعٌ، وأصواتٌ مضطربة، وقميصٌ ملطخ، وقصةٌ معدة سلفًا.

جاء البكاء قبل الكلام في ترتيب الآية؛ لأنهم أرادوا للعاطفة أن تمهد للكذبة. فالإنسان إذا تأثر بالمشهد قد يتراجع عن فحص الرواية، وقد يصدق حرارة الأداء قبل أن يسأل عن تماسك الدليل.

لكن الدموع ليست دائمًا شهادةً للصدق.

قد يبكي المظلوم، وقد يبكي من صنع المظلومية ليتقن دوره فيها. والقرآن لا يعلمنا القسوة على الباكين، لكنه يحررنا من الاستسلام للمظهر وحده. الصديق قيمةٌ تحتاج إلى قرائن، لا إلى ارتفاع الصوت فقط.

ثم قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾. قبل أن يعرضوا حجتهم كاملةً، اتهموا أباهم بأنه لن يصدقهم. وهذه من حيل النفس المذنبية: تستبق انكشاف ضعف الرواية باتهام السامع بالتحيز.

لم يقولوا: اسمع منا ثم احكم؛ بل صنعوا لأنفسهم عذراً إذا لم يقتنع: المشكلة ليست في قصتنا، بل في أنك لا تثق بنا.

وهكذا يحمل الكذب معه دفاعاته قبل أن يُواجه.

ثم جاءوا بالقميص: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. ووُصف الدم نفسه بالكذب، مع أن الكذب في الحقيقة فعلهم؛ لكن أثر الخديعة التصق بالدليل حتى صار الدم كاذباً. لم يعد مجرد سائلٍ أحمر، بل شاهد زورٍ صُنِعَ ليحجب الحقيقة.

ومع ذلك خانهم القميص؛ فقد جاء سليماً لا تمزق فيه. أرادوه دليلاً، فصار علامةً على اضطراب روايتهم. فالذئب الذي زعموا أنه أكل يوسف ترك قميصه كاملاً!

إن الباطل قد يتقن البكاء ويختار الظلام ويصنع الدليل، لكنه يعجز غالباً عن إغلاق كل ثغرات الحقيقة. ينسى تفصيلاً صغيراً، فتخرج منه القصة كلها.

لقد حذف القرآن رحلة عودتهم، لكنه أظهر نتيجهما النفسية والأخلاقية. لم يكن المهم عدد الخطوات من الجب إلى البيت، بل المسافة التي قطعوها داخل الكذب حتى استطاعوا الوقوف أمام أبيهم بهذه الصورة.

﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: كلمتان تكشفان أن بعض الظلمات ليست في الوقت، بل في القلوب التي تختار الوقت ستارًا.

الفصل الحادي عشر

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾: الغائبُ الذي عرّفه السياق

يقول الله تعالى في مشهد سليمان عليه السلام: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ
بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۖ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي
حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۗ﴾.

قال: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ولم يذكر الاسم الذي عاد إليه الضمير صراحةً، وقد اختلف المفسرون في مرجعه؛ ف قيل: الشمس توارت بالحجاب، وقيل: الخيل غابت عن النظر. والسياق يحتمل النظر في وجوهه ضمن دلالة اللغة وأقوال أهل التفسير، من غير أن يُبنى التأمل على جزمٍ بما لم يجزم به النص.

وهنا يمنح الحذف العبارة مرونةً تصويرية؛ فالذي كان حاضراً في المشهد غاب، ولم يبقَ منه إلا أثر الحركة في النفس. «توارت» لا تعني غابت فحسب؛ بل اختفت وراء حاجب، وانسحبت من مجال الرؤية حتى لم يعد البصر يبلغها.

وفي الكلمة رقةٌ تناسب مشهد العشي. لا سقوط مفاجئ، ولا انقطاع صახب؛ إنما توارٍ خلف حجاب. كأن النهار أو المعروضات يبتعد شيئاً فشيئاً، ويترك سليمان أمام محاسبةٍ داخلية لما جرى.

ولفظ ﴿الْحِجَابِ﴾ لا يحدد هنا مادةً نلمسها، بل يرسم الحد الفاصل بين ما كان منظوراً وما صار غائباً. وهذا هو شأن الزمن كله؛ الأشياء تمر أمامنا لحظةً، ثم تتوارى بحجاب الماضي.

شبابٌ كان حاضراً ثم توارى.

وأحبةٌ ملؤوا المكان ثم صاروا خلف حجاب.

وفرضٌ بدت كأنها ستنتظر، ثم غابت.

إن الإنسان يعيش كأن ما أمامه سيظل ظاهراً، ثم يفاجئه التواري. ولذلك يصبح الانتباه للوقت جزءاً من العبودية؛ فما يُعرض عليك اليوم قد لا يبقى إلى الغد، وما تستطيع إصلاحه الآن قد يحجب عنك لاحقاً.

وفي الآية اتصالٌ بين حركة الخارج وانتباه الداخل. شيءٌ توارى عن العين، فظهر في القلب سؤال الذكر والمسؤولية. وهذا من شأن المؤمن: لا تمر عليه الأحداث منفصلةً عن علاقته بالله؛ يحاسب نفسه، ويراجع ترتيب اهتماماته، ولا يسمح للجمال والقوة والملك أن تستولي على مركز القلب.

ولا تذم الآية الخير في ذاته؛ فقد وُصفت الخيل بالصوافن الجياد، وفيها من الجمال والقوة ما يناسب ملك سليمان وجهاده. لكن النعمة مهما عظمت لا ينبغي أن تحجب المنعم، ولا أن يتحول ما سُخر للطاعة إلى شاغلٍ عنها.

كل نعمةٍ قد تكون وسيلةً إلى الله أو حجاباً عنه؛ والفرق ليس في ذات النعمة، بل في موضعها من القلب.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾: غاب المذكور، لكن معنى الغياب بقي ظاهراً،

يذكّر الإنسان بأن كل ما يملكه الزمن قابلٌ لأن يتوارى، ولا يبقى إلا ما

اتصل بالله.

الفصل الثاني عشر

﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: كلماتٌ قليلةٌ كشفت أدبَ المضيف وحذره

يقول الله تعالى في خبر ضيوف إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

مشهدٌ قصير، وحوارٌ بالغ الإيجاز:

قالوا: ﴿سَلَامًا﴾.

قال: ﴿سَلَامٌ﴾.

ثم دار في نفسه أو قال على وجهٍ يناسب المقام: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

لم يطل إبراهيم السؤال، ولم يبدأ الغرباء بالتحقيق في هوياتهم، ولم يجعل استغرابه منهم ذريعةً لسوء ضيافتهم. جمع بين الحذر والأدب في كلماتٍ قليلة.

وقد لاحظ أهل البيان أن تحية إبراهيم: ﴿سَلَامٌ﴾، جملةٌ اسمية تدل على الثبات، وهي أقوى من قولهم: ﴿سَلَامًا﴾ في دلالة التحية؛ فكأنه ردٌّ بأحسن منها، امتثالاً لمعنى التكريم قبل أن ينزل حكم التحية في شريعة الإسلام بصورته المعروفة.

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

حُذِفَ المبتدأ الذي يمكن تقديره: أنتم قومٌ منكرون، أو هؤلاء قومٌ لا نعرفهم. وجاءت العبارة مقتضبةً، كأن الحذر فكرةً سريعةً مرّت في نفسه من غير أن تتحول إلى إساءةٍ ظاهرة.

إنه لا يعرفهم، لكنه لا يتهمهم.

يستشعر غرابة حضورهم، لكنه لا يحرمهم حق الضيافة.

وهذا توازنٌ أخلاقي دقيق؛ فبعض الناس يسمي السداجة حسن ظن، فيفتح أبوابه لكل خطر، وبعضهم يسمي سوء الظن فطنة، فيعامل كل غريبٍ كمتهم. أما إبراهيم فكان واعياً بجهالة حالهم، مع بقاء الكرم حاضراً.

ثم قال الله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. ولفظة ﴿فَرَاغَ﴾ تحمل خفة الحركة وخفاءها؛ ذهب إلى أهله من غير أن يشعر ضيوفه بأنه يثقل عليهم أو ينتظر منهم طلب الطعام. لم يقل: هل تريدون أن أقدم لكم شيئاً؟ فقد يحملهم الأدب على الرفض؛ وإنما بادر بالفعل.

وحين عاد لم يضع الطعام بعيداً، بل ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾. كرمٌ لا يكتفي بتوفير العطاء، بل يزيل المسافة بينه وبين المحتاج إليه.

ثم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾. عرضٌ لطيف، لا أمرٌ ثقيل ولا عتابٌ مباشر. فلما لم تصل أيديهم إليه: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. عاد الحذر الذي لم يلغِه الكرم، واتضح أن القلب كان يراقب العلامات.

في هذا المشهد القصير منهجٌ كامل في التعامل مع المجهول: سلامٌ كريم، وحذرٌ واعٍ، وضيافةٌ مبادرة، ومراقبةٌ للسلوك، ثم انتظارٌ لانكشاف الحقيقة.

كل ذلك بدأ بحوارٍ لا يتجاوز كلمات:

﴿سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

إن رشاقة الحذف لم تختصر الكلام فحسب؛ بل كشفت رقيَّ النفس التي لا تحتاج إلى الإسهاب لتجمع بين الكرم والفتنة.

الباب الخامس

الكَلِمَةُ حِينَ تَدْخُلُ إِلَى النَّفْسِ

لا يخاطب القرآن عقل الإنسان من خارج تجربته، بل يدخل إلى المواضع التي يختبئ فيها خوفه وحزنه وضعفه. يعرف أن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى تفسير الحدث بقدر حاجته إلى كلمةٍ تعيد ترتيب شعوره تجاهه.

قد لا يتغير الخطر، لكن تتغير العين التي تراه.

وقد لا ينتهِ الطريق، لكن القلب يسترد قدرته على السير.

وقد تبقى الأسباب قليلةً، غير أن كلمةً من الله تدخل إلى النفس فتجعلها أكبر من الخوف الذي يحاصرها.

إن الكلمات القرآنية لا تصف المشاعر فحسب؛ بل تعالجها. لا تكتفي بأن تقول للإنسان: أنت حزين أو خائف، وإنما تمسك بيده من داخل حزنه وخوفه، وترده إلى حقيقةٍ غابت عنه تحت ضغط اللحظة.

وما أعجب أن تكون الجملة قصيرةً، ثم تحمل قلباً كاملاً من حافة الانهيار إلى مقام السكينة!

الفصل الأول

﴿لَا تَحْزَنْ﴾: الكلمة التي لم تلغِ الغار ولكنها أضاءته

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

كان النبي ﷺ وصاحبه في الغار، والطلب قريب، والعيون تبحث، والأسباب الظاهرة لا تمنح المشهد مساحةً واسعةً للأمان. وفي قلب ذلك الضيق جاءت الكلمة:

﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

لم يقل: لا تحزن لأنهم لن يصلوا، ولا لأن خطتنا محكمة، ولا لأن موضع الغار خفي؛ بل ردَّ القلب إلى الحقيقة الكبرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قد تتغير الأسباب أو تخفق، أما معية الله الخاصة لأوليائه بالحفظ والتأييد والنصر فلا تتوقف على تقدير البشر. حين يحضر هذا اليقين في القلب، لا تصبح المخاطر وهمًا، لكنها تفقد حقها في أن تكون الحقيقة الوحيدة في المشهد.

كان القوم قريبين، نعم.

لكن الله أقرب بعلمه وحفظه وتديره.

كانت الأعين تفتش.

لكن فوقها علمٌ لا تغيب عنه عينٌ ولا خطوة.

كانت القوة في ظاهرها مع المطاردين.

لكن النتيجة بيد من لا يعجزه شيء.

إِنْ ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ لا توبخ القلب على بشريته؛ فالحزن انفعالٌ يقع في النفس، وقد حزن الأنبياء والصالحون. لكنها تمنع الحزن من أن ينفرد بتفسير الواقع، وأن يتحول إلى قنوطٍ يقطع الصلة بالله.

الحزن يقول: نحن وحدنا.

والإيمان يصحح له: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

الحزن يضيق المشهد حتى لا يرى إلا أقدام المطاردين.

واليقين يوسعه حتى يرى ربَّ المطاردين والمطاردين، وهو يدبر الأمر كله.

ولم يقل النبي ﷺ: إن الله معي، مع أنه صاحب الرسالة؛ بل قال: ﴿مَعَنَا﴾. أدخل صاحبه في دائرة الطمأنينة، ولم يحتفظ بالأمان لنفسه. وهذا من كمال الصحبة: أن تمنح من معك نصيباً من يقينك حين يضعف، وأن تحول المعرفة بالله إلى مأوى مشترك.

كم من إنسانٍ يقول للحزين: لا تحزن، ثم لا يمنحه سبباً يرفع به قلبه! تصبح العبارة أمراً ثقیلاً، كأنه مطالبٌ أن يوقف ألمه بمجرد الإرادة. أما القرآن فيقرن النهي بالحقيقة التي تجعله ممكناً: لا تحزن، لأنك لست متروكاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾. فالسكينة لم تكن إنكارًا للخطر، بل مددًا إلهيًا نزل في موضعه. الغار ضيقٌ في مساحته، لكنه اتسع بالمعية حتى صار أرحب من الأرض التي يملكها المطاردون.

ليست سعة المكان في جدرانها، بل في مقدار ما يحضر فيه من الله.

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: لم تُخرجهم الكلمة من الغار في اللحظة نفسها، لكنها أخرجت الغار من أن يكون سجنًا للخوف.

الفصل الثاني

﴿لَا تَخَافُ﴾: الطمأنينة عند باب الطاغية

يقول الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۖ﴾.

لم يخف موسى وهارون من وهمٍ بعيد. كنا ذاهبين إلى فرعون الذي استباح الدماء، واستعبد الناس، وادعى الربوبية. والخوف من بطشه تقديرٌ بشري مفهوم، لذلك لم يعاتبهما الله على اعترافهما به.

قالا بوضوح: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾.

إن الإيمان لا يطلب من الإنسان أن يكذب على نفسه، ولا أن يسمي الاضطراب طمأنينة. يستطيع المؤمن أن يقول: أخاف، بشرط ألا يجعل خوفه هو صاحب القرار الأخير.

فجاء الجواب:

﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۖ﴾.

لم يعدهما الله بأن فرعون سيتحول قبل وصولهما إلى رجلٍ رحيم، ولم يقل إن المواجهة ستكون سهلةً خاليةً من التهديد. إنما منحهما ما هو أعظم من تغير الخصم: يقين المعية الإلهية.

فالتأغية ليس وحده في مجلسه حين يقف المؤمن أمامه؛ الله يسمع ما يقول، ويرى ما يفعل، ويعلم ما يضمّر. ليس في قدرة فرعون زاويةً مظلمة تختبئ عن علم الله.

﴿أَسْمَعْ وَأَرَى﴾.

يسمع كلمتكما حين تضعف أصواتكما أمام صخب الملك.

ويرى وقفكما حين لا يرى الناس وراءكما جيشاً.

ويسمع تهديده.

ويرى أدوات بطشه.

فلا يسبق إلى علمه همسٌ، ولا تقع حركةٌ خارج تدبيره.

إن الخوف ينمو غالباً من شعور الإنسان بأنه يواجه القوة وحده. فإذا استقرت المعية في قلبه، عاد الخصم إلى حجمه الحقيقي: مخلوقٌ محدود، مهما اتسع سلطانه، لا يتحرك إلا في ملك الله.

ومع ذلك، لم تكن الطمأنينة دعوةً إلى التهور؛ فقد أمرهما الله أن يقولاً له قولاً ليناً. فالشجاعة الإيمانية ليست صخباً، ولا حاجة لها إلى الفظاظ كي تثبت صدقها. يدخلان على أشد الطغاة بكلمة واضحةٍ لينة؛ لأن قوة الرسالة في حقها، لا في قسوة أدائها.

وهنا تلتقي الطمأنينة بالأخلاق. فمن استمد قوته من الله لم يحتج إلى أن يثبتها بالإهانة، ولم يحوله خوفه المستتر إلى عدوانٍ لفظي.

﴿لَا تَخَافَا﴾: جاءت بصيغة التثنية، فكأن الله جمع قلوبهما في غطاءٍ واحد من الحفظ. كان كل واحدٍ منهما سندًا لأخيه، وفوق سند الأخوة سند المعية.

وقد يبقى للخوف أثره البشري بعد سماع الوعد، لكن الفرق أن المؤمن يمضي رغم وجوده. فالشجاعة ليست غياب الخوف دائمًا، بل أن يكون أمر الله أكبر منه.

وقف موسى وهارون أمام فرعون لأنهما لم يعودا يقيسان الموقف بعدد الواقفين في القاعة؛ كانا يعلمان أن معهما من يسمع ويرى.

الفصل الثالث

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾: سؤالٌ يهدم جيوشَ الخوفِ

يقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

لم تأتِ الآيةُ في صورةِ خبرٍ مباشرٍ: إن الله يكفي عبده، بل جاءت سؤالاً:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾

والسؤال هنا لا ينتظر جواباً؛ إنه يستخرج الجواب من أعماق الفطرة والإيمان. بلى، والله، إنه لكافٍ عبده.

لكن صيغة السؤال أبلغ في إيقاظ القلب؛ لأنها لا تضع الحقيقة أمامه فقط، بل تجعله شاهداً عليها. كأن الآية تقول له: راجع ما تعرفه عن الله، ثم أخبرني: إذا كان هو القادر، المالك، المدبر، فمن تخاف خوفاً يقطعك عنه؟

جاء اسم الجلالة أولاً: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾، ليملاً القلب قبل أن تُذكر الكفاية والمخاوف. فالقضية لا تبدأ بحجم الخطر، بل بمعرفة من تتوكل عليه.

إذا بدأت بالعدو، كبر في عينك.

وإذا بدأت بالله، عاد كل شيءٍ إلى قدره.

ثم قال: ﴿بِكَافٍ﴾. دخلت الباء لتزيد معنى الكفاية تأكيداً، كأن الآية تحيط القلب بالحقيقة من كل جهة: أيمن أن يكون الله غير كافٍ لمن صدق في عبوديته واعتصم به؟

ثم جاءت كلمة ﴿عَبْدَهُ﴾.

لم تقل: أليس الله بكافٍ الناس جميعًا في كل ما يطلبون على أي حال، بل أبرزت مقام العبودية؛ فالكفاية هنا كفايةٌ خاصة لأوليائه فيما وعدهم به، على الوجه الذي تقتضيه حكمته. والعبد لا يختار على ربه صورة الكفاية، لكنه يوقن أنها آتية، ولو جاءت على غير ما توقع.

قد يكفيك الله بإزالة الخطر.

وقد يكفيك بمنع أثره.

وقد يكفيك بالقوة على احتماله.

وقد يكفيك بأن يجعل ما خفته طريقًا إلى رفعتك.

نحن نحدد الكفاية غالبًا في سيناريو واحد؛ فإذا لم يقع ظننا أن الله لم يكفنا. أما المؤمن فيثق بالحكمة التي تختار صورة الحفظ ووقته.

ثم قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

التخويف صناعةٌ يمارسها الباطل قبل أن يمارس الأذى. يضخم قوته في خيال الإنسان، ويعيد عرضها أمامه، حتى يهزمه التصور قبل أن تقع المواجهة. وقد يكون أخطر سلاحٍ للخصم هو الصورة التي استطاع أن يبنمها لنفسه في قلبك.

فيأتي السؤال القرآني لهدم تلك الصورة من أصلها: أليس الله بكافٍ عبده؟

لا ينكر وجود من يخوفونك، لكنه ينكر أن تكون لهم الكلمة الأخيرة.

لا يقول إنهم بلا قوة، بل يقول إن قوتهم من دون الله، وتحت ملكه، ولا تخرج عن قدره.

وكلما تكاثرت الأصوات التي تريد أن تسجنك في الخوف، عد إلى السؤال. لا تمر به كقاريٍّ محايد؛ أجب عنه بقلبك:

بلى، إن الله كافٍ عبده.

وهذا الجواب ليس عبارةً لتخدير النفس، بل عهد عبودية: أن تثق، وتأخذ بالأسباب، ولا تبيع الحق لتشتري أماناً موهوماً من مخلوق.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾: سؤالٌ قصير، لكنه إذا استقر في القلب أعاد ترتيب الكون كله؛ الله في مقام الربوبية، والإنسان في مقام العبودية، والمخاوف بينهما أصغر من أن تقطع حبل اليقين.

الفصل الرابع

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: حين يُمنع الانكسارُ من الوصول إلى الروح

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

نزلت هذه الكلمات في سياق جرحٍ حقيقي، لا في لحظة انتصارٍ ظاهر. كان المؤمنون قد أصابتهم القروح، وفقدوا رجالاً يحبونهم، وتعرضت صفوفهم للاضطراب. فجاء الخطاب لا لينكر ما وقع، بل ليمنع أثر الهزيمة من أن يتسلل إلى تعريفهم لأنفسهم.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾.

الوهن ضعفٌ يصيب الإرادة، لا الجسد وحده. قد يكون الإنسان جريحاً لكنه قوي الروح، وقد يكون سليم الجسد وقد انهيار من الداخل. والقرآن لا يطلب منهم أن ينكروا جراحهم، بل ألا يسمحوا للجراح أن تتحول إلى عقيدة في العجز.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

ليس نهياً عن الحزن الفطري الذي يصيب القلب عند الفقد، وإنما عن الحزن الذي يشل الحركة، ويقطع الرجاء، ويجعل لحظة التعثر تفسيراً للمستقبل كله.

قد تخسر جولةً، لكنك لا تصبح بذلك خاسراً في ميزان الله.

وقد يسقط منك شهداء، لكن دماءهم ليست دليلاً على خذلان السماء.

وقد يعلو الباطل لحظةً، لكن علوه المادي لا يمنحه علوً القيمة.

ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

كيف يكونون الأعلين وهم مثخنون بالجراح؟

إنه علو الإيمان والغاية والمنهج، لا ضمانٌ بأن تظل كل نتيجةٍ دنيويةٍ في أيديهم. هم الأعلون ما داموا يحملون الحق، ولا يبيعونه تحت ضغط الألم. وقد ينتصر خصمهم في ميدانٍ مؤقت، لكنه يظل منحدرًا في ميزان الحقيقة إذا كان يقاتل بالباطل ولأجله.

غير أن الآية وضعت شرطًا دقيقًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ليس العلو امتيازًا عرقيًا أو لقبًا يمنح لكل من انتسب إلى الإيمان بلسانه. إنه مرتبطٌ بحقيقة الإيمان حين تتحول إلى طاعةٍ وثباتٍ ومراجعةٍ للأخطاء. فإذا فرط المؤمنون في سنن النصر، لم تُعفهم هويتهم المعلنة من نتائج التفريط.

وهكذا تجمع الآية بين التثبيت والمحاسبة. لا تسحقهم بعد الهزيمة، ولا تدللهم بوعدٍ منفصل عن شروطه. ترفع رؤوسهم، ثم تردهم إلى إيمانهم ليصلحوا ما اختلف.

إن بعض الهزائم تقع مرةً في الخارج ثم يكررها الإنسان داخله سنوات. يظل أسير مشهد السقوط، ويمنح خصمه في ذاكرته انتصاراتٍ لم يحققها في

الواقع. فجاءت ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ لتقطع هذا الامتداد: يكفي ما أصاب الجسد، فلا تسلموا له الروح.

المؤمن لا يستمد قيمته من تصفيق الناس ولا من نتيجة معركة واحدة. يستمدّها من صلته بالحق، ثم يتعلم من عثرته، ويقوم، ويعيد بناء أسباب القوة.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: ليست كلمةً للمجروح كي يتجاهل جرحه، بل كي يمنعه من الوصول إلى مركز إرادته.

الفصل الخامس

﴿قَرِي عَيْنًا﴾: الطمأنينة التي تعود إلى العين بعد طول البكاء

يقول الله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

جاءتها هذه الكلمات في أكثر لحظاتها انكشافًا ووحدةً. امرأةٌ عفيفة تحمل طفلًا من غير زوج، وتعلم أنها ستعود به إلى قومٍ لا يعرفون سر المعجزة، وأن الألسنة ستسبق القلوب إلى اتهامها. بلغ بها الألم أن قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾.

إنها لا تتمنى الموت كراهيةً في قدر الله، بل من شدة ما تتوقعه من مواجهة تمس أخصَّ ما عاشت به: طهرها وسمعتها وعبادتها.

ثم يأتي الخطاب:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

ما أرق الانتقال! لم يبدأ بتكليفها مواجهة القوم، ولا بشرح تفاصيل ما سيقع، بل أعادها أولًا إلى حاجات جسدها المنهك: كلي، واشربي. فالحزن قد يجعل الإنسان ينسى بدنه، والوحي يرد له التوازن: لا تحملي همَّ الغد حتى تهملِي حق اللحظة.

ثم قال: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

قُرت العين إذا سكنت واطمأنت بما يسرها، وقيل إن أصل التعبير يتصل ببرودة الدمع في الفرح والرضا في مقابل حرارته في الحزن. والمعنى هنا: اطمئني، ولتسكن عينك، ولا تظلي معلقةً بمشهد الاتهام الذي لم يقع بعد.

كانت عين مريم تنظر إلى الطفل وترى معه الأسئلة القاسية التي تنتظرها. فجاء الوحي ليعلمها أن ترى في الطفل آية الله قبل أن ترى فيه كلام الناس.

إن القلق يسرق من النعمة صورتها؛ فقد تكون بين يدي الإنسان هبةً عظيمة، لكنه لا يراها لأنه مشغولٌ بما قد يقوله الآخرون عنها. ومريم تحمل كلمةً من الله، ومع ذلك كاد خوف المجتمع أن يحجب عنها بهجة المعجزة.

فقال لها: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

إن الذي خلق الطفل قادرٌ أن يتولى حجته.

والذي أجرى الرطب والماء في موضع وحدتها لن يتركها عند مواجهة قومها.

ليس عليك أن تصنعي للمعجزة دفاعاً من عندك؛ فالآية ستتكلم عن نفسها.

ثم أمرت إذا رأت من البشر أحداً أن تقول بالإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. كان صمتها هنا عبادةً وثقةً، لا عجزاً عن الجواب. فهناك اتهاماتٌ لا تستطيع كلمات البشر أن ترفعها، ويكون أفضل الدفاع أن تترك لله بيان الحقيقة.

وقد تكلم الطفل.

خرجت البراءة من الموضع الذي حسبوه موضع التهمة، ونطق عيسى عليه السلام بما لم تستطع ألسنتهم مجادلته: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

كم من مرة أتعبنا أنفسنا بمحاولة الدفاع عن حقيقة تكفل الله بإظهارها في وقتها! نريد أن نشرح لكل أحد، ونغلق كل فم، ونصحح كل رواية، حتى نستنزف أعمارنا في محاكم لا تنتهي.

ليست كل معركة مع الناس مهمتك.

قد يكون نصيبك أن تثبت على الطهر، ونصيب الحقيقة أن تتكلم حين يأذن الله.

﴿وَقَرِي عَيْنًا﴾: كلمة لا تعد مريم بأن الناس لن يتهموها، لكنها تعد قلبها ضمناً بأن اتهامهم لن يكون نهاية القصة.

الفصل السادس

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾: حماية المستقبل ومداواة الماضي

يقول الله تعالى لأم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

اجتمع في قلب أم موسى خوفان: خوفٌ مما سيأتي، وحزنٌ على ما فارق يدها. فجاءت العبارة تداوي الجهتين:

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

الخوف يتجه غالباً إلى المستقبل: ماذا سيقع لطفلي في الماء؟ من سيجده؟ هل يبتلعه اليم؟ وهل يصل إليه جنود فرعون؟

والحزن يتصل بما وقع وانفصل: لقد خرج من حضني، ولم أعد أراه، وصار بيني وبينه ماءٌ لا أملك أمره.

فجاء النهي عن الخوف ليحمي قلبها من المستقبل، والنهي عن الحزن ليجبره على الفراق الحاضر. ثم لم يُترك النهي مجرداً، بل أُقيم على وعدٍ مزدوج:

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

رُدُّ يعالج ألم الأمومة.

ورسالةٌ تكشف الغاية التي تُعدُّ لها حياة الطفل.

لم يقل: سنحفظه فقط، بل: سنعيده إليك. ولم يقل: سنعيده وحسب، بل: سنجعله من المرسلين. إن عناية الله لا تكتفي باسترجاع ما ظننته ضاع؛ قد تعيده محملاً بدورٍ أعظم مما تصورت.

وما أجزل التعبير بصيغة اسم الفاعل: ﴿رَادُّوهُ﴾ و﴿جَاعِلُوهُ﴾. في الصيغة ثباتٌ وتحقق، كأن الوعدين قائمان ينتظران أن يبلغا زمنهما. لم يكن رجاءً محتملاً، بل خبراً من الله الذي لا يخلف وعده.

لكن قلب الأم ظل قلباً بشرياً، وكاد يصرخ بالسر: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾.

إن سماع الوعد لا يلغي الألم الإنساني دفعةً واحدة. قد تؤمن، ثم ترتجف. وقد تثق، ثم تهاجمك صورة الخطر. ولذلك تحتاج القلوب إلى أكثر من المعلومة؛ تحتاج أن يربط الله عليها.

﴿رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾: كأن القلب كان يتفكك من شدة القلق، فجاءه مددٌ يجمعه ويحفظه من أن ينهار. وهذا الربط أحد ألطاف الله التي لا يراها الناس؛ يرون الإنسان ثابتاً، ولا يرون اليد الرحيمة التي أمسكت بقلبه من الداخل.

ثم تحقق الرد بأدق صورة؛ عاد موسى إلى أمه كي ترضعه، وأصبحت تتلقى أجراً على إرضاع ابنها الذي كانت تخشى فقده. دخل الخوف من باب، وخرجت منه نعمةٌ لم تكن تتصور ترتيبها.

لقد ألقته في اليم بأمر الله، فردّه الله إليها داخل حماية قصر فرعون نفسه.

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾: ليستا كلمتين ضد المشاعر البشرية، بل جناحان يحملان القلب فوق الزمن؛ لا يخاف ما لم يأتِ، ولا ينهار على ما فات، لأنه يستند إلى وعد الله.

الفصل السابع

﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَمْعِدِينَ﴾: اليقينُ حين انتهت خرائط الأرض

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ
﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعَ رَبِّي سَمْعِدِينَ﴾.

كان البحر أمامهم، وفرعون بجنوده خلفهم. لم يكن الخطر احتمالاً بعيداً؛ صار الجمعان يرى بعضهما بعضاً. عندها قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾.

قراءتهم للأسباب صحيحة في حدودها: لا سفن، ولا طريق ظاهراً في البحر، ولا قوة تكافئ جيش فرعون. لكن الخطأ كان في ظنهم أن ما يرونه هو مجموع الحقيقة.

جاء موسى بكلمة تقطع هذا الحصار:

﴿كَلا﴾.

ليست «كلا» إنكاراً لوجود الجيش، ولا ادعاءً بأن البحر غير موجود. إنها رفضٌ للنتيجة التي بنوها على الأسباب: كلا، لن ندرك على الوجه الذي تظنون؛ لأن في المشهد عنصراً أغفلتموه.

﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي﴾.

لم يقل: معي عصاي؛ فقد كانت العصا موجودةً، لكنهم لم يعرفوا ماذا ستفعل. ولم يقل: أعرف طريقًا سرّيًّا؛ فلم يكن البحر في حساب البشر طريقًا. ردَّ الأمر إلى الرب الذي يخلق الطريق حين تنتهي الطرق.

ثم قال: ﴿سَمَّيْنِ﴾.

لم يقل: سينجيني فقط، بل اختار الهداية. كأن النجاة طريقٌ يحتاج إلى من يدل عليه، حتى لو كان هذا الطريق سيمر في قلب البحر. والهداية هنا تشمل إرشاده إلى ما يفعل، وقيادته إلى سبيل الخلاص الذي لم يكن ظاهرًا.

إن موسى لم يكن يعرف . من ذات نفسه . صورة الفرج في تلك اللحظة، لكنه كان يعرف من سيهديه إليها. وهذا فرقٌ عظيم: قد تجهل الحل، ولا تكون ضائعًا؛ لأنك تعرف الله.

نحن نطلب الطمأنينة غالبًا من معرفة التفاصيل: كيف سيقع الفرج؟ متى؟ ومن أي جهة؟ فإذا غابت الخطة اضطربنا. أما يقين موسى فكان متعلقًا برب الخطة، لا بتفاصيلها.

﴿سَمَّيْنِ﴾: المستقبل غائبٌ عني، لكنه ليس غائبًا عن ربي.

ثم جاء الأمر: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. والعصا التي لا تساوي في قوانين المادة شيئًا أمام البحر أصبحت، بأمر الله، بداية الطريق. لم تكن القدرة في الخشب، بل في طاعة الأمر.

﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

ما قالوا عنه: لا طريق، جعله الله طريقًا.

وما ظنوه حاجزًا صار جدارين يحميان عبورهم.

وما رآه فرعون منفذًا لمطاردتهم صار موضع هلاكه.

إن الله لا يحتاج دائمًا إلى إزالة العقبة؛ قد يشق الطريق في داخلها. وقد لا يبعد البحر عنك، لكنه يمنحك سبيلًا يعبر بك خلاله.

والمدهش أن جملة موسى جاءت قبل انشقاق البحر. لو قالها بعد ظهور الطريق لكانت شكرًا على نجاة مشهودة، لكنه قالها قبل أن يرى، فكانت يقينًا بالغيب.

هنا يُعرف الإيمان: لا حين تقول «نجاني الله» بعد النجاة فقط، بل حين تقول في لحظة الانحصار:

﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَمِيعِينَ﴾.

الفصل الثامن

﴿لَا تَقْنَطُوا﴾: النداء الذي يبلغ المذنبين خلف أسوارهم

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ما أرحم النداء قبل النهي:

﴿يَا عِبَادِيَ﴾.

لم يقل: يا أيها المجرمون، ولا: يا من عصيتم، مع أن السياق يصف إسرافهم في الذنب. نسبهم إلى عبوديته، وفتح لهم بهذا النداء باب القرب قبل أن يأمرهم بالعودة.

إنهم أسرفوا، أي تجاوزوا الحد وأكثروا من الجناية على أنفسهم، ومع ذلك لم يُسقط عنهم اسم العبودية، ولم يطردهم من ساحة الخطاب. كأن الآية تقول: لم تقطعكم ذنوبكم عن أن يكون لكم ربٌ يدعوكم إليه.

ثم قال: ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

فالذنوب لا تضر الله، ولا تنقص من ملكه؛ إنما يعود أثرها على صاحبها. كل معصية يظن الإنسان أنه نال بها لذةً أو حريةً تحمل في باطنها اعتداءً على روحه. هو الجاني والمجني عليه في وقتٍ واحد.

ثم جاء النهي:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

القنوط ليس حزنًا على الذنب؛ فقد يكون الحزن بداية التوبة. إنه انقطاع الرجاء حتى يظن العبد أن باب الله لا يتسع له. وهنا يتحول شعوره بالتقصير إلى وسيلةٍ يستخدمها الشيطان لإبقائه في المعصية: ما دمت قد بلغت هذا الحد، فلا فائدة من الرجوع.

لكن الله لم يقل: لا تقنطوا لأن ذنوبكم صغيرة، بل قال ذلك مع وصفها بالإسراف. الرجاء لا يقوم على تهوين الجريمة، وإنما على تعظيم المغفرة.

ثم جاءت الجملة التي تكاد ترفع المذنب من تحت ركامه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

كل الذنوب داخلَةٌ في باب المغفرة لمن تاب ورجع إلى الله، مهما عظمت وكثرت؛ فلا يجوز أن يُفهم الوعد إذنًا بالإصرار، بل دعوةً إلى الإنابة، كما يبينه ما بعده: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

الرحمة لا تقول لك: ابقَ حيث أنت، فلا خطر عليك.

الرحمة تقول: عُذْ؛ فالطريق لم يُغلق.

ولو كان الرجاء بلا توبة لكان خداعًا للنفس، ولو كانت التوبة بلا رجاء صارت بابًا يراه المذنب ولا يملك الشجاعة للدخول منه. فجاء القرآن يجمعهما: لا تيأس، ثم أنب وأسلم.

وتأمل تأكيد الخاتمة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ضمير الفصل يعمق الحصر والتقرير؛ هو الغفور الذي تتكرر مغفرته، الرحيم الذي لا يفتح لعباده الباب ليزلهم عنده، بل ليطهرهم ويقرهم.

إن بعض الناس يذكر التائب بـماضيهِ كلما أراد أن يبدأ، أما الله فيبدل السيئات حسناتٍ لمن صدق في إيمانه وتوبته وعمله. البشر قد يحبسونك داخل النسخة القديمة منك، لكن رحمة الله تمنحك إمكان أن تولد أخلاقياً من جديد.

﴿لَا تَقْنَطُوا﴾: كلمتان تهدمان السجن الذي يبنيه الذنب حول صاحبه. لا تنكران الجريمة، لكنهما تنكران أن تكون الجريمة أكبر من رحمة الله.

وما دام العبد يسمع هذا النداء، فليس السؤال: هل لي طريق؟

الطريق مفتوح.

إنما السؤال: متى أعود؟

الفصل التاسع

﴿وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾: الفرجُ الذي يتحرك وراء الغيب

يقول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

مرت سنواتٌ طويلةٌ منذ غياب يوسف. ولم يكن الغائب واحدًا بعد ذلك؛ فقد بقي أخوه أيضًا بعيدًا، واشتد الحزن حتى ابيضت عينا يعقوب. ومع ذلك لم يقل لأبنائه: اجلسوا وانتظروا المعجزة، بل قال:

﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾.

إن الرجاء القرآني لا يلغي الحركة. يتحسس الإنسان الأخبار، ويفتش عن الأثر، ويطرق الأبواب، وفي الوقت نفسه لا يعلق قلبه بالأسباب وحدها. يعمل كأن عليه مسؤولية السعي كاملة، ويرجو كأن الفرج كله بيد الله.

والتحسس هو طلب الخبر بالحواس والتتبع الدقيق. وهذا يعني أن يعقوب لم يكن يملك معلومةً ظاهرة تقوده إلى يوسف، لكنه كان يملك يقينًا يمنعه من إعلان النهاية.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾.

والرَّوح هنا الفرج والرحمة والتنفيس بعد الضيق؛ كأن الكرب يخنق النفس، ثم يأتي لطف الله فيفتح لها منفذًا تنفَس منه.

ما أجمل اختيار الكلمة! لم يقل: لا تيأسوا من العثر عليهما فقط، بل وسّع رجاءهم إلى روح الله. فقد يكون للفرج صورٌ لا يعرفونها، وقد تكون العناية قد رتبت في الغيب ما لا تبلغ إليه حساباتهم.

اليأس يحكم على المستقبل بأدلة الحاضر المحدودة. ينظر الإنسان إلى الباب المغلق فيقول: لن يُفتح. وينظر إلى طول الغياب فيقول: لن يعود. لكنه لا يعلم ماذا يجري وراء الباب، ولا ما تصنعه عناية الله في زمن الانتظار.

كان يوسف في نظر أبيه مفقوداً، لكنه في تدبير الله ينتقل من الجب إلى البيت، ومن الفتنة إلى السجن، ومن السجن إلى خزائن الأرض. السنوات التي بدت فراغاً في حياة يعقوب كانت ممتلئة بصناعة اللقاء.

إن الغيب ليس ساكناً لمجرد أنك لا تراه.

قد تكون الأقدار تتحرك نحوك في اللحظة التي تظن فيها أن كل شيء توقف.

وقد يكون الجواب يتكوّن بعيداً عن عينك.

وقد تكون التأخيرات المتتالية أجزاءً من ترتيبٍ لو رأيته كاملاً لفهمت لماذا لم يقع الفرّج في الموعد الذي اخترته.

ثم جعل يعقوب اليأس من روح الله علامةً خطيرة: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لأن اليأس الكامل يتضمن سوء معرفةً بالله، وكأن رحمة محدودة، أو قدرته تعجز أمام الواقع.

والمؤمن قد يضعف ويضيق ويبكي، لكنه لا يجعل شعوره حكمًا على قدرة الله. يقول: لا أرى الطريق، ولا يقول: ليس لله طريق.

وهذا فارقٌ بين العجز البشري واليأس العقدي. أن تعترف بأنك لا تملك حلًّا تواضع، أما أن تظن أن خزائن الله خلت من الحلول فضلال.

﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ لم تأتِ ليعقوب في بداية البلاء، بل بعد طوله؛ وكأن الرجاء الصادق لا يُختبر حين تكون البشائر قريبة، بل حين تتأخر حتى لا يبقى له سندٌ ظاهر إلا الله.

ثم ذهبوا، فتحركت آخر حلقات اللقاء، وعاد القميص هذه المرة لا يحمل دمًا كاذبًا، بل يحمل ريح يوسف وبشارة البصر والاجتماع.

إن الله الذي حوّل القميص يومًا إلى أداة حزن، جعله في النهاية رسول فرح.

الفصل العاشر

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: حين تصبح الشكوى عبادة

يقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كان أبناؤه يرون طول حزنه على يوسف، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. كأنهم يطلبون منه أن يغلق باب الذاكرة، وأن يتعامل مع الفقد كأنه واقعة قديمة ينبغي أن تفقد أثرها.

لكنه لم يكن يشكو إليهم ليحملهم ما لا يطيقون، بل قال:

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

البثُّ هو الحزن الشديد الذي لا يستطيع صاحبه أن يجبسه، فكانه يتفرق وينتشر من امتلاء الصدر به. وقد جمع يعقوب بين ﴿بَثِّي﴾ و﴿حُزْنِي﴾، فذكر ما فاض من ألمه وما بقي مستقرًا في أعماقه.

كل ذلك يضعه أمام الله.

وهنا يظهر الفرق بين الشكوى إلى الله والشكوى من الله. الأولى عبادة وافتقار؛ تقول: يا رب، أنا ضعيف فاحملني، ومتألم فارحمي. أما الثانية فاعتراضٌ وسوء ظن، كأن العبد يتهم ربه في حكمته وعدله.

يعقوب لم يقل: لماذا فعلت بي هذا؟ وإنما توجه بحزنه إلى من يعلم سببه ونهايته، ويملك أن يجبره.

إن بعض الناس يظن أن الصبر يقتضي أن يبقى القلب صامتًا حتى أمام الله، وأن يكتُم صاحبه ألمه كأن الاعتراف به نقصٌ في الإيمان. لكن الأنبياء علّمونا أن نبث إلى الله ما لا نستطيع بثه إلى الخلق.

الدعاء ليس دائمًا طلبًا محددًا؛ قد يكون أن تجلس بين يدي الله وتخبره . وهو الأعلَم . بما فعل الحزن فيك. لا لتضيف إلى علمه خبرًا، بل لتسترد أنت موقعك: عبدٌ ضعيف عند ربِّ رحيم.

ولفظ ﴿إِنَّمَا﴾ يفيد الحصر؛ كأن يعقوب أقام حدًّا يحيي ألمه من الابتذال. لن يوزع حزنه على المجالس، ولن يجعل جرحه قصةً يتداولها كل أحد. له بابٌ واحد يضع عنده ما يثقل قلبه.

ليس معنى ذلك أن طلب العون من الناس ممنوع، فقد يحتاج الإنسان إلى طبيبٍ أو صاحبٍ أمين، وإنما المعنى أن يبقى أصل التعلق بالله، وألا تتحول الشكوى إلى مهنة تستنزف الروح وتزيدها تعلقًا بعطف الخلق.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هنا يتبين أن حزنه لم يكن يأسًا. كان يبكي، لكنه يحمل في داخله معرفةً بالله تمنعه من إغلاق باب الرجاء. اجتمع الدمع واليقين في قلبٍ واحد.

وهذا يهدم الفكرة التي تجعل المؤمن القوي إنسانًا لا يتأثر. يعقوب قويٌّ لأنه لم يحوّل تأثره إلى قنوط، لا لأنه فقد القدرة على الحزن.

قد تكون أشد الناس يقينًا، وأشدّهم دمة.

فالدمة تخبر عن مقدار المحبة، واليقين يخبر عن مقدار المعرفة بالله.

﴿إِنَّمَا أَشْكُو﴾: ليست عبارة مهزوم، بل إعلان قلب عرف أن الخلق لا يملكون تفسير كل وجعه، فحمله إلى من لا يضيق بكثرة الشكوى ولا يعجز عن الجبر.

الفصل الحادي عشر

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: حين تكفي كلمة لمواجهة العالم

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

تكرر لفظ ﴿النَّاسُ﴾ في الآية: ناسٌ ينقلون التخويف، وناسٌ يجتمعون للعدوان، ومؤمنون يراد لهم أن يشعروا بأنهم وحدهم أمام كثرةٍ محيطية.

قالوا لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. لم يذكروا قوةً محددة فقط، بل استخدموا اللفظ العام ليجعلوا الخطر كأنه البشرية كلها. وهذه من طرائق التخويف: تضخيم العدد حتى يشعر الإنسان أن مقاومته عبث، وأن العالم بأسره قد أغلق عليه الطريق.

ثم جاءت النتيجة التي لم يتوقعها المخوِّفون: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

الكلمة نفسها التي أُريد بها إضعافهم زادتهم قوة؛ لأن الخبر حين وصل إلى قلوبٍ تعرف الله لم ينتج ما أراده ناقلوه. لم ينكروا تجمع العدو، لكنهم قابلوا الجمع بكلمة:

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾.

حسبنا، أي كافينا. ليست العبارة استهانةً بالأسباب، ولا إعفاءً من الاستعداد، بل تحريزٌ للقلب من الاعتقاد أن كثرة العدو تحسم النتيجة خارج إرادة الله.

لقد قال المخوفون: الناس.

فقال المؤمنون: الله.

وما إن يوضع الاسم العظيم في كفة حتى تفقد الكثرة المصطنعة قدرتها على احتلال النفس.

ثم قالوا: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. الوكيل هو الذي يُفَوَّضُ إليه الأمر مع الثقة بكفايته وحسن تدبيره. والله نعم الوكيل؛ لأنه لا يعجز، ولا يجهل، ولا يخون، ولا يغيب عنه جانبٌ من القضية.

أما وكلاء البشر فقد يريدون ولا يستطيعون، أو يستطيعون ولا يخلصون، أو يعرفون جانبًا وتخفى عليهم جوانب. لكن من توكل على الله فوض أمره إلى من جمع العلم والقدرة والرحمة والحكمة.

والتوكل ليس أن تتخلى عن دورك، بل أن تؤديه دون أن تنوهم أنك إله النتيجة. المؤمن يُعَدُّ ما يستطيع، ويمضي، ثم يعلم أن الأسباب أدوات وليست أربابًا.

وقد أثمرت الكلمة في الآية واقعًا: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ فَإِذْ هُمْ كَاذِبُونَ﴾. لم تكن «حسبنا الله» شعارًا صوتيًا، بل يقينًا أعاد بناء استجابتهم، فثبتوا حيث كان يراد لهم أن ينهاروا.

إن الإنسان قد يكون وحده في الموقف، لكنه لا يكون قليلًا إذا كان الله حسيبه. وقد تحيط به الجموع، لكنها لا تتحول إلى قدرٍ حتي لمجرد كثرتها.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: كلمتان لا تزيدان عدد المؤمنين، لكنهما تغيران ميزان القوة في قلوبهم. ومن انكسر خوفه في الداخل بدأ طريق النصر، ولو ظل العدو أمامه كما هو.

الفصل الثاني عشر

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾: اليدُ الخفية التي جمعت أطراف القصة

يقول يوسف عليه السلام بعد أن اجتمع بأبويه وإخوته، وانتهت رحلة الحب والسجن والفرار: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

لم يفسر يوسف حياته بالقوة التي اكتسبها، ولا بذكائه في إدارة الأزمة، ولا بالمصادفات التي نقلته من موضعٍ إلى آخر. بعد أن رأى القصة مكتملةً، ردَّ خيوطها كلها إلى اسمٍ واحد:

﴿لَطِيفٌ﴾.

اللطيف هو التدبير الدقيق الذي يبلغ غايته من طرقٍ خفية، والبرُّ الذي يصل إلى العبد في صورٍ قد لا يتعرف إليها عند وقوعها. فبعض أَلطاف الله رقيقٌ ندركه فوراً، وبعضها يمر في ثياب المحنة، ولا ينكشف وجه الرحمة فيه إلا بعد زمن.

كيف كان الحب لطفاً؟

لم يكن الألم في ذاته محبوباً، ولا ظلم الإخوة خيراً؛ لكن الله لم يترك الشر يرسم النهاية. أخذ من فعلهم الذي أرادوا به إبعاده، طريقاً أوصله إلى مصر.

وكيف كان السجن لطفاً؟

كان ظلمًا وضيقًا، لكنه حفظ يوسف من الفتنة، ثم جعله يلتقي بمن سيذكره عند الملك، وفتح له من التأويل باباً إلى خزائن الأرض.

وكيف كان الفراق لطفًا؟

كان جرحًا عميقًا ليعقوب ويوسف، لكنه انتهى إلى اجتماعٍ أعظم، وإلى توبة الإخوة، وإلى تحقق الرؤيا القديمة.

إن اللطف لا يعني أن الطريق لا يؤلم، بل أن الألم لا يُترك بلا حكمة، وأن يد الله تستطيع أن تمر من خلال العقد كلها حتى تبلغ بالبعد غايةً لم يكن يعرفها.

قال يوسف: ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾. فما يشاؤه الله لا تعجزه تعقيدات البشر. إذا أراد أمرًا، سخر له الطرق الظاهرة والخفية، وجعل مقاومة الناس نفسها جزءًا من مساره.

أراد الإخوة أن يمنعوا تحقق الرؤيا، فكان فعلهم أول خطوة نحو تحققها.

وأرادت امرأة العزيز أن تسجنه، فصار السجن طريقًا إلى الملك.

وأراد الساقى أن ينسى، لكن النسيان امتد حتى جاءت اللحظة التي أصبح فيها تذكّر يوسف أشد تأثيرًا.

لقد عمل اللطف في الصمت، بينما كان الجميع يظن أن الأحداث تتبع رغباته الخاصة.

ثم ختم يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. يعلم أين يضع كل حادثة، وحكيم في توقيتها وربطها بغيرها. نحن نتألم لأننا نرى القطعة وحدها، بينما الحكمة تتعلق بالصورة كاملة.

قد تنظر إلى فصلٍ من حياتك فتراه عبثًا، لأنك لم تصل بعد إلى الصفحة التي تكشف وظيفته. ليس لك أن تجزم بسر كل بلاء، لكن لك أن تثق بأن الله لا يجهل ما تمر به، ولا تخلو أقداره من الحكمة.

وما أجمل إضافة الرب إلى نفسه: ﴿رَبِّي﴾. لم تكن معرفةً نظرية بل خبرةً عاشها؛ رباه الله عبر التحولات، ونقله من حالٍ إلى حال، وحفظ فيه طهره ورسالته.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾: كلمةٌ لا تمحو مرارة الماضي، لكنها تضعه داخل معنى أكبر؛ فتعود الجراح أجزاءً من سيرة العناية، لا أدلةً على الغياب.

الباب السادس

جَزَالَةُ الْكَلِمَةِ فِي مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

حين يتحدث القرآن عن القيامة، لا يكتفي بأن يقرر وقوعها، بل ينقلها من الغيب البعيد إلى الشعور القريب. يختار كلماتٍ قليلة، غير أن كل كلمة منها تحمل انقلابًا في نظام الكون، أو انكشافًا في أعماق النفس، أو سقوطًا لحجابٍ ظل الإنسان يحتمي خلفه طوال حياته.

في الدنيا تتوزع الحقيقة بين ظاهرٍ وباطن، وتختلط الدعاوى بالأعمال، ويستطيع الإنسان أن يهرب من نفسه إلى صورته بين الناس. أما في القيامة فتسقط المسافات، ويبرز ما كان مختبئًا، وتصبح السرائر مشهَدًا، وتقترب النهاية حتى لا يبقى للعقل موضعٌ يؤجل إليه اليقين.

لهذا تأتي ألفاظ القيامة جزلَةً حاسمة؛ لا تحتل التردد، ولا تسمح للسامع أن يقف بعيدًا عن المشهد. إنها لا تصف يومًا عظيمًا فحسب؛ بل توقظ الإنسان قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه اليقظة.

الفصل الأول

﴿أَزَفَتِ الْأَرْفَةُ﴾: القريبُ الذي نعامله كأنه بعيد

يقول الله تعالى: ﴿أَزَفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ ۝ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝.

أزف الشيء إذا دنا واقترب. وسميت القيامة ﴿الْأَرْفَةُ﴾ لأنها آتية تقترب، وإن خُيِّلَ للغافلين أنها بعيدة.

وجاء التعبير بالفعل والاسم من أصل واحد:

﴿أَزَفَتِ الْأَرْفَةُ﴾.

اقتربت القربة.

كأن التكرار يطارد وهم التأجيل، ويثبت المعنى في النفس من جهتين: الحدث في ذاته قريب، وحركته نحوك قد بدأت. إنه لا ينتظر أن تفكر فيه كي يتحرك؛ كل يوم يمضي يأخذك إليه.

ونحن نتعامل مع الزمن بطريقة عجيبة: نعدُّ الموت حقيقةً عامة، ثم نستثني أنفسنا منه في شعورنا. نرى الأعمار تنقضي، لكن القلب يظل يتصرف كأن أمامه مخزونًا غير محدود من الأيام.

تقول الآية: ﴿أَزَفَتْ﴾، بصيغة الماضي، مع أن القيامة لم تقع بعد؛ للتعبير عن تحقق مجيئها وقربها، فكأن الأمر قد وقع لصدق الوعد، وما بقي إلا أن ينكشف للناس.

ثم قال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

لا يستطيع أحد أن يكشف وقتها استقلالاً، ولا أن يدفعها إذا جاءت، ولا أن يرفع أهوالها إلا بإذن الله. كل القوى التي يعول عليها الإنسان تقف عند حدودها؛ العلم المادي يستطيع أن يرصد تغيرات العالم، لكنه لا يملك أن يلغي اليوم الذي قدره خالق العالم.

وفي كلمة ﴿كَاشِفَةٌ﴾ اتساعٌ؛ فهي تحتل معنى الكشف عن وقتها، وكشف شدتها وإزالتها. وفي كلا الوجهين يعود الأمر إلى الله وحده. لا يعرف مواعدها إلا هو، ولا ينجي من أهوالها إلا رحمته.

إن قرب القيامة لا يُقاس بعدد السنوات التي تفصل العالم عنها فقط؛ فهي قريبةٌ من كل إنسان بموته. من مات قامت عليه مقدمات آخرته، وانتهى زمن الزيادة في عمله. وما عمر الإنسان أمام الأبدية إلا مسافةٌ قصيرة، مهما طال في الحساب.

لذلك لا تقول الآية: اقتربت كي يصاب الإنسان بالهلع العقيم، بل لتسقط عنه خدعة «سوف». سوف أتوب، وسوف أصلح، وسوف أرد الحق، وسوف أبدأ حين تهدأ الحياة. لكنه لا يسأل: ومن ضمن لي أن القيامة الشخصية ستنتظر حتى أنتهي من تأجيلاتي؟

إن قرب الآخرة يمنح الحاضر قيمته. لأن الفرصة محدودة تصبح السجدة نفيسة، والاعتذار عاجلاً، والعمل الصالح جديراً ألا يؤجل.

﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ﴾: جملةٌ قصيرة تقرب البعيد، حتى يعيش الإنسان يومه لا مدعوراً من النهاية، بل مستعداً لها.

الفصل الثاني

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾: حين تسقط جميع المخابئ

يقول الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

البروز هو الظهور والخروج إلى فضاءٍ لا ستر فيه. وجاءت الكلمة لتصف الخلق يوم القيامة وقد سقطت عنهم الحجب التي كانوا يختبئون وراءها.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾.

وليس معنى ذلك أنهم كانوا في الدنيا غائبين عن علم الله؛ فالله يعلم سرهم وعلاانيتهم، ولا يخفى عليه شيء. إنما المراد أنهم ظهروا للحساب، وانكشفت أحوالهم، ولم يبقَ لهم ما كانوا يتسترون به أمام الخلق.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يعيش بطبقاتٍ متعددة: وجهٌ للمجتمع، ووجهٌ للمصلحة، ووجهٌ يخفيه في داخله. وقد ينجح طويلاً في حماية صورته، حتى يظن أن الحقيقة هي ما استطاع إقناع الناس به.

لكن يوم القيامة يوم البروز.

تبرز الأجساد من القبور.

وتبرز الأعمال من الصحف.

وتبرز النيات من السرائر.

وتبرز الحقائق من خلف الدعاوى.

لا يبقى للسمعة سلطانٌ على تعريف الإنسان؛ فالذي يعرفه الناس قد يسقط، والذي لم يعرفوه قد يظهر أثقل ما في الميزان.

ثم جاء اسم الله: ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

الواحد الذي زالت يومئذٍ أوهام الشركاء، وانكشف أن الملك كان له وحده في الدنيا كما هو له في الآخرة. والقهار الذي خضعت له الرقاب، وسقطت أمام سلطانه كل قوةٍ ادعت الاستقلال.

كان الناس في الدنيا يبرزون أمام الملوك مرتبكين، ويحسنون هيئاتهم للمقابلات، ويهيئون الجواب. أما البروز لله فلا تنفع فيه صناعة المظهر، ولا يستطيع أحدٌ أن يرتب روايته بعد أن صارت الجوارح شهودًا عليه.

وما أعدل هذا البروز للمظلومين! كم من حقيقةٍ دُفنت تحت نفوذ القوي، وكم من بريءٍ شُوهِت صورته حتى لم يجد من يسمع صوته. هناك لا يملك الظالم أدوات السرد، ولا يستطيع أن يختار الشهود، ولا أن يحذف من الوثائق ما يدينه.

يبرز الجميع أمام علمٍ أحاط بما حدث كما حدث.

لكن الآية لا تخاطب الظالم وحده؛ إنها تسأل كل إنسان: ما الذي يبقى منك إذا نزعت عنك صور الناس؟ من أنت حين لا يراك أحدٌ إلا الله؟ فهذه الخلوة التي تظنها بعيدةً عن المشهد هي جزءٌ مما سيبرز.

إن النجاة يوم البروز تبدأ بصدقٍ في الدنيا؛ أن تقلل المسافة بين ظاهرك وباطنك، وألا تبني لنفسك شخصيةً من مدائح الناس. كلما صدقت، قلَّ ما تخشى انكشافه.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ﴾: كلمةٌ واحدةٌ تهدم كل المخابئ، وتضع الإنسان أمام الحقيقة التي أجل النظر إليها: لا بد أن يخرج يومًا من صورته إلى نفسه.

الفصل الثالث

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾: الصمتُ حين يظهر سلطانُ الرحمن

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

لم يقل: سكنت الأصوات، بل قال:

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾.

فالسكوت قد يكون غياباً للصوت فقط، أما الخشوع فهو انكسارٌ وسكونٌ نابعان من إدراك الهيبة. وكأن الأصوات نفسها صارت كائناتٍ خاشعة، بعدما كانت في الدنيا ترتفع بالجدال والتحدي والادعاء.

كم كان للكلمات في الدنيا من ضجيج!

خطبٌ تصنع للطغاة هالاتٍ من الوهم.

وحججٌ تزين الباطل.

وأسنةٌ تقذف الأبرياء.

وأصواتٌ تعلو، لا لأنها تحمل الحق، بل لأنها تملك المنابر.

ثم يأتي ذلك اليوم، فتخشع الأصوات كلها ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾.

وما أبدع مجيء اسم الرحمن في هذا المقام المهيّب! فالذي تخشع له الأصوات هو الرحمن، لتظل الرحمة حاضرةً حتى في مشهد الهيبة والحساب. سلطانه ليس بطشاً منفصلاً عن الحكمة، وحكمه لا يخلو من الرحمة، وإن كان يومئذٍ يوم ظهور العدل والجزاء.

ثم قال: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

والهمس أخفى الصوت، وقيل: صوت الأقدام أو الكلام الخافت. أيًا كان وجهه في التفسير، فالمشهد محاطٌ بالسكون. الملايين التي ملأت تاريخ الأرض تقف، فلا تسمع منها إلا حركة خفية لا تملك أن تكسر جلال المقام.

إن هذا الصمت ليس فراغاً؛ إنه اعترافٌ كوني بانتهاء سلطان الكلام البشري. لا يستطيع أحد أن يقاطع الحكم، ولا أن يرفع صوته ليمنع ظهور الحقيقة.

وفي الدنيا يظن الإنسان أن ارتفاع صوته يمنحه قوة، وقد يستخدم الضجيج لمهرب من ضعف حجته. أما يوم القيامة فيسقط هذا السلاح؛ فلا صوت إلا بإذن، ولا كلام إلا صواباً: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

والآية تربي المؤمن على خشوع صوته قبل ذلك اليوم. ليس المقصود أن يهمس دائماً، بل أن يعرف حرمة الكلمة، وألا يجعل لسانه منفلتاً كأن لا حساب وراءه. إذا كان الصوت سيخشع هناك، فليخشع هنا للحق.

وليس كل صمتٍ خشوعاً، كما أن ليس كل ارتفاعٍ كبراً؛ فقد يجهر الإنسان بكلمة الحق عبادةً لله. الميزان هو: لمن يرتفع الصوت، ولماذا ينخفض؟

﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾: مشهدٌ تُسكت فيه الحقيقة ضجيج التاريخ،
فلا يبقى إلا همس الخلق أمام جلال الخالق.

الفصل الرابع

﴿شَاخِصَةً أَبْصَارُ﴾: العينُ التي نُسيت أن ترمش

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

الشخوص هو ارتفاع البصر وثباته من شدة الهول، حتى لا يكاد الطرف يرمش. ولم يقل القرآن: شخصت أبصارهم فقط، بل قال:

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

جاءت «إذا» الفجائية، فانتقل المشهد من اقتراب الوعد إلى العيون المفتوحة على الحقيقة بغتة. لم تعد القيامة موضوعاً للنقاش، بل صارت منظرًا يملأ البصر حتى يعجز عن الحركة.

وقد تقدمت ﴿شَاخِصَةً﴾ على الأبصار، فكأن الحالة سبقت أصحابها، واستولت على المشهد قبل أن نعرف مَنْ وقعت عليه. شخوصٌ أولاً، ثم تظهر العيون المحكوم عليها به.

في الدنيا كانت هذه الأبصار تتحرك حيث تشاء؛ ترى الآيات ثم تمر، وتشاهد الموت ثم تنشغل، وتنظر في زينة الدنيا حتى يخيل إليها أنها الحقيقة الوحيدة. أما هناك فتثبت على مشهدٍ لا تستطيع أن تصرف نفسها عنه.

إنها عينٌ أُعطيت طويلاً حرية النظر، لكنها لم تستخدمه في الاعتبار، فصارت في الآخرة أسيرة ما ترى.

ثم يخرج الاعتراف: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾.

لاحظ قوله: ﴿مِنْ هَذَا﴾. صار اليوم الآخر قريبًا مشارًا إليه، بعد أن عاملوه في الدنيا كحديثٍ بعيد. المسافة كلها انهارت في اسم الإشارة.

لكنهم لم يقفوا عند وصف الغفلة، بل صححوا اعترافهم: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. فالغفلة قد توهم أن الأمر كان مجرد سهوٍ لا إرادة فيه، فجاء الإضراب ليكشف الحقيقة: لم نكن غافلين فقط؛ كانت الآيات تصلنا، فكنا نظلم بالإعراض عنها.

إن الغفلة المتكررة بعد التذكير تتحول إلى اختيارٍ أخلاقي. يسمع الإنسان، ثم يقرر أن يعيش كأنه لم يسمع. يرى، ثم يختار ألا يعتبر. ولهذا لا يكفيه هناك أن يقول: لم أنتبه؛ فالرسل جاءت لتوقظه.

﴿شَاحِصَةً﴾: كلمةٌ واحدة ترسم عينًا متيبهة من الهول، لكنها في الدنيا نداءً للعين كي تتحرك في الآيات قبل أن تُجبر على الثبات أمام الجزاء.

الفصل الخامس

﴿نَاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاطِرَةٌ﴾: إشراقُ الوجه وغيائهُ النظر

يقول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿١٠٠﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾.

بين الكلمتين اختلاف حرفٍ واحد:

﴿نَاضِرَةٌ﴾ بالضاد، أي حسنةٌ مشرقة ناعمة.

و﴿نَاطِرَةٌ﴾ بالطاء، أي تنظر إلى ربها.

تقاربنا في الجرس، وتعانقتا في المعنى؛ فأولاهما تصف أثر النعيم في الوجوه، والثانية تكشف أعظم أسباب ذلك النعيم.

وجاء التعبير بالوجوه؛ لأنها صفحة الإنسان التي تظهر عليها مشاعره. قد يخفي اللسان ما في القلب، أما الوجه فيفضح كثيراً من خوفه وفرحه. وفي القيامة تبلغ الأحوال من القوة ما يجعل الوجوه عناوين ظاهرةً للمصائر.

﴿نَاضِرَةٌ﴾: ليست مشرقةً بضوءٍ خارجي فقط، بل يفيض عليها النعيم من

داخلها، وقد زال عنها كل تعبٍ وخوفٍ وانتظار. إنها نضرة الخلود، لا نضرة شبابٍ يعقبه الذبول.

ثم جاءت الغاية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾. يثبت أهل السنة ما دل عليه القرآن والسنة من رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة رؤيةً حقيقيةً تليق بجلاله، من غير إحاطةٍ ولا تشبيهٍ ولا تكييف؛ فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وما أعظم إضافة الرب إلى الوجوه المؤمنة: ﴿رَبِّهَا﴾. هو ربها الذي خلقها، وهداها، وصبر عليها، وغفر لها، وأوصلها برحمته إلى هذه اللحظة. لم يكن النظر إلى مجهول، بل إلى الرب الذي عرفته القلوب في الدنيا بآياته وأسمائه ووحيه، ثم أكرمها في الآخرة بالنظر إليه.

إن كل نعيم الجنة عظيم، لكن هذه الآلة ترفع الرجاء إلى ما فوق القصور والأنهار والثمار؛ إلى أعظم نعيم أهل الجنة. فالقلوب التي عبدت الله دون أن تراه، وصدقته بالغيب، واشتاقت إليه، تنال من الكرامة ما لا تبلغه اللغة.

وَحُقَّ للوجوه عندئذٍ أن تكون ناضرة.

لقد عاش المؤمن في الدنيا بين حجب؛ يعرف الله بوحيه وآياته، ويستدل عليه بخلقه، ويعبده كأنه يراه، لكنه لا يراه في الدنيا. فإذا انتهى الامتحان ووقعت الكرامة، كان النظر تمام القرب والنعيم.

وتقابل هذه الوجوه وجوه أخرى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ﴾ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ. وجهٌ أشرق بما ينتظر، ووجهٌ عبس لما أيقن به. لم تعد السرائر خفية؛ كل وجهٍ يحمل مصيره.

﴿نَاضِرَةٌ... نَاضِرَةٌ﴾: تقاربٌ صوتي يحمل رحلةً كاملة من أثر النعمة إلى مصدر النعيم، ومن إشراق الوجه إلى أعظم ما تتطلع إليه العين.

الفصل السادس

﴿بُعْثِرَ﴾: حين تقلب القبور ما استودعته

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

لم يقل: إذا خرج الموتى من القبور، بل قال:

﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

والبعثرة إثارة الشيء وقلبه وتفريق ما اجتمع منه، وفي الكلمة حركةٌ عنيفة تقلب سكون المقابر. تلك المواضع التي بدت قروناً مستودعاتٍ مغلقة، تفتح بأمر الله، وتلقي بما في داخلها.

ليس البعث استيقاظاً هادئاً في عالمٍ يستمر كما كان؛ إنه انقلابٌ في نظام الموت نفسه. الأرض التي ضمت الأجساد وأخفتها تعيد ما استودعته، فلا يبقى ميتٌ في موضعه، ولا جسدٌ يستطيع أن يتخلف عن النداء.

وفي جرس ﴿بُعْثِرَ﴾ شيءٌ من الاضطراب؛ تتتابع حروفها كأن التراب يُثار، والمخبوء يخرج، والسكون الطويل ينكسر في لحظة.

ثم قال: ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾، لا «من» في القبور؛ فجاء التعبير شاملاً لما احتوته، مع تصوير الأجساد في حال غيابها عن عالم التكليف كأنها من جملة ما أودع في الأرض. فإذا جاء الأمر رد الله إليها الحياة، وقامت للحساب.

لكن بعثرة القبور ليست وحدها موضوع المشهد؛ يقابلها كشفٌ أشدَّ قربًا من الإنسان:

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

فالخارج يخرج من الأرض، والداخل يخرج من النفس. تُفتح القبور عن الأجساد، وتُفتح الصدور عن النيات. ما كان مخفيًا تحت التراب يقابل ما كان مخفيًا خلف الضلوع.

في الدنيا يهتم الإنسان كثيرًا بما يتركه فوق قبره من اسمٍ وصورةٍ وذكر، لكن الآخرة تهتم بما حمله داخل صدره. قد يدفن الناس الجسد في موضع كريم، لكن كرامة صاحبه هناك لا تحددها هيئة القبر؛ يحددها ما حُصِّل من قلبه وعمله.

إن القبور تحفظ سرَّ الفناء، والصدور تحفظ أسرار الإرادة. وفي القيامة لا يبقى لهذا ولا لذلك ستر.

﴿بُعْثِرَ﴾: كلمةٌ توقظ الإنسان من خدعة السكون. ليست المقابر نهاية القصة، بل خزائن مؤقتة ستُقلب يومًا، ويقف ما فيها أمام الله حيًّا كما كان.

الفصل السابع

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: حين تُستخرج حقيقة العمل

يقول الله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

التحصيل هو الجمع والاستخراج والتمييز، حتى تظهر خلاصة الشيء وحقيقته. ولم يقل القرآن: وعلم ما في الصدور؛ لأن الله كان عالماً به قبل أن يخلقه أصحابه في نفوسهم. وإنما المقصود إظهاره واستخراجه وترتيب الجزاء عليه.

ما في الصدور ليس خواطر عابرةً يؤاخذ الإنسان بكل ما مر منها من غير اختيار؛ وإنما حقائق النيات، ومقاصد الأعمال، والإيمان والنفاق، والمحبة والبغضاء، والإخلاص والرياء، وما استقر واكتسبه القلب.

إن العمل الواحد قد تتشابه صورته في أعين الناس، ثم تختلف حقيقته عند الله اختلافاً بعيداً. قد ينفق اثنان المبلغ نفسه؛ أحدهما يبتغي وجه الله، والآخر يشتري ثناء الناس. وقد يصمت اثنان؛ أحدهما يحبس لسانه حلماً، والآخر يسكت جبناً عن الحق. وقد يتكلم اثنان بكلمة واحدة؛ أحدهما يريد النصح، والآخر يخفي رغبةً في الإهانة.

الصورة متشابهة، لكن الصدور مختلفة.

ولهذا كان يوم الحساب يوم تحصيل؛ لا يزن الحركات مجردةً عن أرواحها، بل يستخرج ما كان يسكنها من مقصد. النية لا تجعل الباطل حقاً،

لكنها جزءٌ من حقيقة العمل المشروع وقيمته؛ فلا يكفي الإخلاص لتصحيح فعلٍ محرم، كما لا يكفي ظاهر الفعل الصالح إذا فسد القصد.

كم من عملٍ كبير في أعين الناس يصغر حين يُحصَل ما وراءه!

وكم من معروفٍ خفي لا يكاد يلتفت إليه أحد، فإذا نُزعت عنه حجب الدنيا ظهر عظيمًا لأنه خرج من قلبٍ صادق!

إن الإنسان يستطيع أن يصنع صورةً لنيته أمام الآخرين؛ يقول: أردت الخير، ولم أقصد الإساءة. وقد ينجح في إقناعهم، وربما ينجح في خداع نفسه لكثرة ما يكرر تبريره. لكن يوم التحصيل يزيل الطبقات التي غطت الدافع الأول.

لا يظلم الله أحدًا، ولا يحاسب الناس بظنون بعضهم في بعض، بل بعلمه الكامل الذي لا تختلط فيه النية الصادقة بالحيلّة النفسية.

وفي قوله: ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ رهبةٌ ورحمة. رهبةٌ لأن السر سيظهر، ورحمةٌ لأن الإخلاص الذي لم يعرفه الناس لن يضيع. قد يعمل المؤمن عملاً فلا يُشكر، أو يُساء فهم قصده، أو يُنسب خيره إلى غيره؛ لكنه يعلم أن ما في صدره سيُحصَل عند من لا ينسى.

وهكذا تحرره الآية من عبودية التفسير البشري. ليس عليه أن يفتح قلبه لكل أحد ليثبت صدقه، لكن عليه أن يفتح له نفسه بالمحاسبة، وأن يطهره لله.

قبل أن تُحصَل الصدور هناك، يمكن للإنسان أن يحصلها هنا: لماذا قلت؟ لماذا صمت؟ لماذا غضبت؟ أكان لله نصيبٌ في هذا العمل، أم كانت النفس تتزين بثيابه؟

المحاسبة في الدنيا رحمة؛ لأنها تسمح بالإصلاح. أما التحصيل في الآخرة
فإظهارٌ للجزاء.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: جملةٌ تنقل مركز الإنسان من صورته إلى
سريته، وتعلمه أن أعظم ملفاته ليس ما يحفظه الناس عنه، بل ما يحفظه
الله في قلبه.

الفصل الثامن

﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ﴾: الغيبُ حين يصير أقرب من النظر

يقول الله تعالى: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾.

الجحيم موجودة في غيب الله، لكن الناس في الدنيا لا يرونها. يستطيع الغافل أن يعيش كأنها غير موجودة؛ لا لأنها غابت عن الحقيقة، بل لأنها غابت عن حسه.

ثم يأتي اليوم الذي تُبرَز فيه.

والتبريز أشد من مجرد الظهور؛ فيه إخراجٌ للشيء وإبرازه حتى يكون واضحًا لا يحجبه حاجب. كأن الجحيم كانت وراء ستار الغيب، ثم قُدمت إلى المشهد، وصارت أمام العيون.

﴿لِمَنْ يَرَى﴾.

تعبيرًا لا يخصص الرؤية بذي بصرٍ حاد، بل يجعلها ظاهرة لكل من تقع منه الرؤية. لا تحتاج إلى برهان، ولا إلى مفسرٍ يشرح أنها النار التي كُذِّب بها. حضورها هو حجتها.

وفي الدنيا يتفاوت الناس في التعامل مع الإنذار؛ مؤمنٌ يرى أثر الغيب ببصيرته، وغافلٌ لا يتحرك إلا أمام المحسوس. فإذا بُرزت الجحيم، آمن بها الجميع، لكن الإيمان بعد المعاينة لا ينشئ نجاتاً لمن رفض الإيمان في زمن الاختيار.

إن قيمة الإيمان أنه يرى بوعده الله قبل أن ترى العين.

ولفظ ﴿الْجَحِيمُ﴾ ذاته يحمل معنى النار الشديدة التأجج. ثم يأتي فعل التبريز ليضيف إلى شدتها قربها ووضوحها. لم تعد فكرة يخفض الإنسان أثرها بتأويل أو نسيان، بل صارت مشهداً يملأ مجال الرؤية.

وفي قوله: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ ربطاً بين المصير والطريق. الغواية ليست خطأ عابراً فحسب؛ إنها سيرٌ منحرف عن الهدى مع اتباع الهوى. والنار التي تبرز لهم هناك هي النهاية التي كان الطريق يتجه إليها، وإن غطتها زينة الدنيا.

كل طريق يحمل نهايته في داخله.

لكن المسافر قد ينشغل بجمال المحطات حتى ينسى السؤال: إلى أين أمضي؟

القرآن يبرز الجحيم بالكلمة قبل أن تُبرز يوم القيامة؛ رحمةً بالإنسان كي يغير اتجاهه. فالإنذار ليس تشفيماً، بل إنقاذٌ مبكر. الذي يخبرك بالنار قبل الوصول إليها يريد لك ألا تراها مصيراً.

إن من قسوة الغفلة أن يطلب الإنسان رؤية العاقبة قبل أن يصدق. فبعض العواقب إذا رآها لم يعد قادراً على الرجوع.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾: كلمةٌ تزيح حجاب الغيب لحظةً في وعي القارئ، حتى لا تصبح الحقيقة التي أنكرها في الدنيا أول ما يراه بوضوحٍ في الآخرة.

الفصل التاسع

﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: كُلُّ إِنْسَانٍ يَعُودُ حَامِلًا أَثَرَهُ

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّرُؤَا أَعْمَالِهِمْ﴾.

الصدر هو الرجوع والانصراف عن المورد، وكأن الناس وردوا ساحة الحساب ثم صدروا عنها بعد أن ظهرت نتائجهم. لكنهم لا يعودون كتلةً واحدة؛ بل ﴿أَشْتَاتًا﴾.

جماعاتٍ متفرقين، تختلف جهاتهم وأحوالهم ومصائرهم. كانوا في الدنيا يجتمعون في المكان، ويتشابهون في الصورة، وينتسبون إلى الأسر والجماعات نفسها؛ لكن العمل يفرضهم يوم القيامة فرقًا لا تصنعه الأسماء المشتركة.

قد يعيش مؤمنٌ ومنافقٌ في بيتٍ واحد، ويقفان في صفٍّ واحد، وينطقان الكلمات نفسها، ثم يفترقان عند ظهور السرائر. فالآخرة لا تحفظ التجمعات التي لا يحفظها الحق.

وكلمة ﴿أَشْتَاتًا﴾ ترسم انفراض الروابط المؤقتة. لا يعني هذا أن أهل الإيمان لا يجتمعون في النعيم، بل إن المشهد يبين اختلاف أحوال الخلق ونتائجهم، وأن أحدًا لا يذوب في جماعته حتى يسقط عنه حسابه الفردي.

ثم ذكر الغاية: ﴿لِّرُؤَا أَعْمَالِهِمْ﴾.

لم يقل: ليُخبروا بها فقط؛ بل ليروها. تتحول الأفعال التي ظنوها انتهت إلى مشاهد حاضرة. الكلمة التي خرجت في ثانية، والخطوة التي لم يلتفت إليها صاحبها، والنظرة التي أخفاها؛ كلها تخرج من زمنها القديم لتقف أمامه.

إن العمل لا يموت حين تنتهي حركته؛ يغيب عن عين صاحبه، لكنه يبقى في علم الله وكتابه، وقد يستمر أثره في الناس. فكرة ضالة نشرها صاحبها ثم نسيها قد تواصل إفسادها بعد موته، وكلمة علمٍ نافعة قد تظل تهدي أجيالاً لم يرها قائلها.

ولذلك لا يرى الإنسان فعله وحده، بل قد يرى الامتداد الذي أطلقه في العالم.

ثم تأتي الآيتان اللتان تردان الإنسان إلى أصغر وحدات العمل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

لم يعد هناك عملٌ أصغر من أن يدخل في الرؤية. ما استصغره الإنسان قد يكبر بإخلاصه أو باستمرار أثره، وما استهان به من شر قد يكشف خللاً عظيماً في قلبه.

إن الإيمان بالذرة يربي الضمير في المساحات التي لا يراقبها الناس. لا تقل: إنها كلمةٌ صغيرة، أو نظرةٌ عابرة، أو مساعدةٌ لا تغير العالم. ميزان الله لا يضيع الصغير.

﴿أَشْتَاتًا﴾: كلمةٌ تفكك وهم الاحتماء بالجماعة، وتعيد كل إنسان إلى عمله؛ فالطرق قد تتجاوز طويلاً، لكن نهاياتها تكشف اختلاف الوجهات.

الفصل العاشر

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: امتحانُ الأشياء التي لم يرها أحد

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ۖ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۚ.

السرائر جمع سريرة، وهي ما أسره الإنسان في قلبه من عقيدة ونية وقصد. و﴿تُبْلَى﴾ تحمل معنى الاختبار والكشف، حتى تظهر حقيقة ما كان مستورًا.

في الدنيا تُبْلَى الأعمال بظواهرها في أحكام البشر؛ يشاهدون الفعل ولا يملكون طريقًا يقينًا إلى القلب. أما في الآخرة فتُبْلَى السرائر نفسها، ويظهر معدنها، ويسقط الفرق بين الوجه الذي صُنِع للناس والقصد الذي كان لله أو للنفس.

وما أخطر أن تكون السريرة هي موضع الامتحان!

فالإنسان يستطيع أن يحسن صلاته إذا رآه الناس، وأن يختار عباراته حين يعرف أنها ستُنقل، وأن يرتدي لكل مجلسٍ الصورة التي تناسبه. لكن من يكون حين يغلق الباب، ويغيب التصفيق، وتزول المصلحة؟

تلك النسخة الخفية هي أقرب إلى حقيقته من الصورة العامة التي أنفق عمره في بنائها.

ولفظ ﴿السَّرَائِرُ﴾ يشمل ما خفي من الخير كما يشمل ما خفي من الشر. وفي يوم الكشف عزاءٌ لأصحاب الأعمال التي لم يرها أحد: دمعَةٌ في جوف الليل، وصدقَةٌ حرص صاحبها أن تخفى، وصبْرٌ لم يشرح للناس مشقته، وعفوٌ لم يعلن عنه.

كل ذلك سيُبلَى، أي يظهر صفاؤه وقيمته.

أما الرياء، فينكشف فراغه؛ فقد عاش صاحبه على نظرات الناس، فإذا جاء إلى يومٍ لا تنفع فيه تلك النظرات لم يجد للعمل روحًا تحمله.

ثم قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾. حين تظهر السريرة، لا يستطيع الإنسان أن يقمع الحقيقة بقوته، ولا أن يستدعي من غيرها دفاعًا عنه. انتهى سلطان النفوذ والعلاقات.

كان يخشى في الدنيا انكشاف سره أمام شخصٍ أو جماعة، وربما فعل المستحيل لحماية صورته. أما هناك فينكشف أمام العليم، ولا قوة تدفع ولا ناصر يحجب.

والقرآن يذكر يوم ابتلاء السرائر كي يمنحنا فرصة تطهيرها الآن. فما دام العبد حيًا، يستطيع أن يراجع نيته، ويتوب من نفاقه العملي، ويصلح المسافة بين علانيته وخلوته.

إن أخطر الفساد ما يعتاد القلب إخفائه حتى ينسى صاحبه أنه فساد. يكرر تبريره، ويسمي حسده غيرَةً على الحق، وانتقامه عدلاً، وحبه للظهور خدمةً للدين. ثم يأتي يوم السرائر فتسقط الأسماء التي اخترعتها النفس.

﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: ثلاث كلماتٍ تجعل القلب نفسه صحيفةً ستُفتح، وتُسأل

الإنسان قبل أن تُفتح: هل يرضيك أن يظهر ما فيها كما هو؟

الفصل الحادي عشر

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾: البصُرُ حين يرى ما حجبته الهوى

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

لم يقل: فخلقنا لك بصرًا جديدًا، بل قال:

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.

كأن الحقيقة كانت حاضرة، لكن بين الإنسان وبينها حجابًا. الموت قريب، والآخرة حق، والملائكة تكتب، والأعمال تمضي إلى الحساب؛ غير أن الغفلة تلف القلب فلا يرى لهذه الحقائق الوزن الذي تستحقه.

والغطاء هنا ليس ستارًا ماديًا تلمسه اليد؛ إنه ما نسجته الألفة والشهوة والتسويق حول البصيرة. تكرر الدنيا نفسها كل صباح، فيظن الإنسان أنها ستكرر إلى غير نهاية. يرى الناس يموتون، ثم يعود من جنازهم ليبني خططه كأن الموت يعرف الآخرين ولا يعرف طريقه إليه.

إنه يعلم، لكنه لا يرى.

ولذلك قال: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾، فجعل الغفلة وعاءً يحيط به. لم تكن خاطرةً عابرة، بل بيئةً عاش داخلها حتى صارت الآخرة عنده فكرةً باهتة، والدنيا واقعًا وحيدًا.

ثم جاءت الفاء: ﴿فَكَشَفْنَا﴾. ما أسرع الانتقال من الغفلة إلى الرؤية! حجابٌ عاش الإنسان خلفه عمرًا كاملاً يزول في لحظة، فإذا الوجود أكبر مما كانت تدركه حواسه.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

البصر الحديد هو النافذ القوي الذي يرى بوضوح. والحديد هنا ليس المادة المعروفة، بل وصفٌ لحدة الإدراك. لا ضباب من شهوة، ولا تأويل يخفف وقع الحقيقة، ولا مهلة تسمح للإنسان أن يدير وجهه.

لكن هذه الحدة المتأخرة لا تنفع من لم يبصر في زمن العمل. القيمة ليست أن ترى النار حين تُبرز، بل أن تراها ببصيرة الإيمان وهي غيبٌ فتجتنب طريقها. وليست النجاة أن تعترف بالحق بعد أن يصير مشهودًا، بل أن تختاره حين كان اتباعه امتحانًا.

إن القرآن يكشف لنا جانبًا من الغطاء الآن، كيلا يكون انكشافه الكامل أول لحظةٍ ننتبه فيها. كل آيةٍ عن الآخرة شقٌّ في حجاب الغفلة، وكل جنازةٍ نافذة، وكل شيبةٍ تذكير بأن الزمن لا يقيم.

لكن النفس ماهرةٌ في إعادة نسج الغطاء. تتأثر لحظة، ثم تغطي الحقيقة بانشغالٍ جديد. ولهذا تحتاج إلى ذكرٍ متكرر؛ لا لأن الحقيقة تغيرت، بل لأن الحجاب يعود.

وفي إضافة الغطاء إلى المخاطب: ﴿غِطَاءَكَ﴾ إحياءٌ بأن لكل إنسان حجابَه الخاص. هذا يحجبه المال، وذاك المكانة، وآخر الشهوة، ورابعٌ غروره بعلمه. قد تتنوع المواد، لكن النتيجة واحدة: وضوح الدنيا وخفوت الآخرة.

فما غطاؤك أنت؟

وما الشيء الذي كلما اقتربت به من رؤية الحقيقة أعادك إلى الغفلة؟

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾: جملةٌ تخبرك أن الحجاب مؤقت، وأن ما لا تريد رؤيته اليوم ستراه غدًا. فطوبى لمن رفع غطاءه بالتدبر قبل أن يُرفع عنه بالاضطرار.

الفصل الثاني عشر

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾: النارُ حين تدخل إلى ساحة المشهد

يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

يأتي ربنا سبحانه يوم القيامة مجيئاً يليق بجلاله للفصل بين عبادته، نؤمن به كما جاء، من غير تشبيه ولا تكييف؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وتصطف الملائكة صفوفًا، ويبلغ المشهد ذروة الهيبة، ثم يقول القرآن:

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾.

لم يقل: وظهرت جهنم فقط، بل صوّرها شيئاً يُؤتى به إلى ساحة الحساب. وفي السنة الصحيحة ما يبين عِظَمَ مجيئها وما لها من الزمام والملائكة الموكلين بها، على وجهٍ يملأ القلب رهبةً من ذلك اليوم.

جاء الفعل مبنياً للمجهول؛ لأن النفس تتجه كلها إلى الحدث: جهنم التي ظلها الغافل وعيداً بعيداً أصبحت حاضرة، تُجاء أمام الخلق، وتنتهي المسافة النفسية التي كان يضعها الإنسان بينه وبينها.

ثم كرر السياق: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ﴾، ثم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾. كأن الزمن نفسه يطرق الوعي مرتين: هذا هو اليوم الذي جُعِلت التحذيرات كلها من أجله، وهذا هو اليوم الذي تأتى فيه الذكرى، ولكن بعد فوات إمكان الانتفاع بها.

﴿وَأَتَى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

كيف تنفعه الآن؟ لقد صار ما كان يحتاج إلى إيمانٍ به مشهودًا، وانتهى الاختبار. التذكر في الدنيا يقود إلى التوبة، أما هناك فيقود إلى الحسرة.

ثم يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.

ما أدق قوله: ﴿لِحَيَاتِي﴾، لا: في حياتي. كأن الحياة الحقيقية التي تستحق الإعداد هي حياة الآخرة، أما الدنيا فكانت فرصة التقديم إليها. لقد كان يظن أنه يعيش هنا، وأن الآخرة خاتمةٌ ملحقة بحياته؛ فإذا به يكتشف أن هنا ممر، وأن الحياة الممتدة كانت أمامه.

لم يقل: ليتني عشت أكثر، أو جمعت أكثر، أو غلبت خصومي؛ كل أمنياته انضغطت في حسرةٍ واحدة: ليتني قدّمت.

فالإنسان لن يتحسر يومئذٍ على ما لم يأخذه من الدنيا، بل على ما لم يرسله منها إلى آخرته.

كل ما احتفظ به لنفسه بقي خلفه، وكل ما قدمه لله وجده أمامه.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾: عبارةٌ تنقل النار من هامش الوعي إلى مركز المشهد، حتى يسأل الإنسان قبل أن يأتي ذلك اليوم: ماذا أعددت لحياتي؟

الباب السابع

مِنْ الْكَلِمَةِ إِلَى مَنْهَجِ الْحَيَاةِ

لا يريد القرآن من الإنسان أن يعجب بجمال الكلمة ثم يتركها معلقة في فضاء التأمل. فالجمال القرآني ليس متحفاً للذوق، بل طريقاً للهداية. كل كلمة تضيء معنىً لتنشئ موقفاً، وكل حقيقة تدخل القلب تطلب أن تظهر في العمل.

ف«العدل» ليس فكرةً نتغنى بها حين يقع الظلم علينا، بل ميزانٌ ينبغي أن نقيمه ولو كان الحكم على أنفسنا.

و«الأمانة» ليست صفةً نطالب بها أصحاب المناصب وحدهم، بل هيئةٌ تسري في الكلمة والمال والسر والمسؤولية.

و«الشكر» ليس ثناءً باللسان فحسب، بل معرفةٌ بالنعمة، ونسبتها إلى واهبها، واستعمالها في مرضاته.

و«التوبة» ليست حزناً عابراً على الماضي، بل عودةٌ تعيد توجيه المستقبل.

هنا تتحول جزالة المعنى إلى جزالة في الشخصية، وتصير رشاقة الكلمة استقامةً في الحركة. فما قيمة أن يفتح اللفظ أماناً عالمياً، إذا لم ندخل إليه؟

الفصل الأول

﴿الْعَدْلُ﴾: الكلمة التي لا تستقيم الأرض بدونها

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

العدل هو وضع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي حقِّ حقه، والحكم بالقسط دون أن تميل الكفة تحت ضغط الهوى أو القرابة أو العداوة.

إنه كلمةٌ قصيرة، لكن وراءها نظام حياةٍ كامل. بها يستقيم القضاء، ويطمئن الضعيف، وتصحان الأموال والأعراض، ويعرف كل إنسان أن قربه من صاحب القوة لن يمنحه حقًّا ليس له، وأن بعده عنه لن يسلبه حقًّا ثبت له.

ولأن العدل مكلفٌ للنفس، لم يتركه القرآن تابعًا للمشاعر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

﴿قَوَّامِينَ﴾: ليست إقامةٌ للعدل مرةً حين يوافق المصلحة، بل نهوضٌ متكرر به، حتى يصبح هيئةً ثابتةً في الشخصية والمجتمع.

ثم بدأ بأصعب مواضع العدل: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾. فالإنسان بارعٌ في رؤية الحق حين يكون له، ضعيفٌ في رؤيته حين يكون عليه. يطلب الإنصاف من خصمه، ثم يؤول الأدلة حين تدينه.

العدل الحقيقي يبدأ عندما تقبل من الميزان ما لا يرضي هواك.

ثم ذكر الوالدين والأقربين؛ لأن القرابة تملك نفوذًا خفيًا على الحكم. قد يزي الإنسان قريبه، أو يدافع عن ابن جماعته، لا لكفائه ولا لحقه، بل لأن عاطفته جعلت القرب معيارًا. وهنا يتحول الحب من رابطة إنسانية إلى أداة ظلم.

القرآن لا يأمرنا أن نتجرد من المحبة، بل أن نمنعها من إفساد الميزان.

وفي الجهة الأخرى قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. فلا القرابة تُعطى حق غيرها، ولا العداوة تسلب الخصم حقه.

وهذا أرفع امتحان أخلاقي: أن تعدل مع من تكره.

ليس المطلوب أن تحبه، ولا أن تسقط حقك عنده، بل ألا تجعل إساءته تصريحًا لنفسك أن تصبح ظالمة. فالحق لا يتغير بتغير مشاعرك تجاه صاحبه.

وحين يغيب العدل، لا يكفي أن تكثر الخطب عن الأخوة والدين والوطن. الكلمات الجميلة لا تحمل مجتمعًا قام بناؤه على المحاباة. قد يبقى مدّة بالخوف، لكنه يتآكل من الداخل؛ لأن المظلوم يفقد ثقته، والكفاء ينسحب، والملتقى يتقدم، ويصبح القرب من القوة أقصر من طريق الاستحقاق.

إن العدل ليس فضيلةً تكميلية بعد قيام الدولة والمجتمع؛ هو الشرط الذي يجعل قيامهما أخلاقيًا وقابلًا للبقاء.

وقد يكون العدل في كلمة: ألا تنقل خبرًا قبل التثبت.

وفي حكم: ألا تجعل خصومتك دليلاً.

وفي منصب: ألا تزكي إلا الأمين الكفاء.

وفي بيت: ألا يحمل الضعيف أعباء القوي.

وفي كتابة: ألا تخفي من الحقيقة ما يفسد صورتك المسبقة.

﴿الْعَدْلُ﴾: خمسة أحرف، لكنها تحمل ميزان الأرض. وإذا مالت هذه الكلمة،
مالت معها حياة الناس كلها.

الفصل الثاني

﴿الْأَمَانَةُ﴾: أن تحمل الشيء كما أراد صاحبه لا كما يريد هواك

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

الأمانة أوسع من المال الذي يُودع عند إنسان ثم يُطلب منه أن يرده. إنها كل حقٍ وُضع في عهدتك، وكل قدرةٍ مُنحت لك لتستعملها في موضعها، وكل سرٍّ ائتمنتك عليه صاحبه، وكل مسؤوليةٍ صرت بسببها قادرًا على نفع الناس أو الإضرار بهم.

الجسد أمانة.

والعلم أمانة.

والكلمة أمانة.

والمنصب أمانة.

وذاكرة الناس التي يضعون فيها أسرارهم أمانة.

وحتى صورتهم التي تقدمها للآخرين أمانة؛ فلا تزيد فيها ما ليس منهم، ولا تحذف منها ما تحتاجه الحقيقة لتظهر عادلة.

وقال تعالى: ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. الأداء يدل على إيصال الحق كاملاً إلى مستحقه. لا أن تحتفظ به حتى يفقد قيمته، ولا أن ترده منقوصاً بعد أن انتفعت به، ولا أن تمنّ على صاحبه لأنك أعدت إليه ما كان له أصلاً.

وفي الجمع: ﴿الْأَمَانَاتِ﴾، تذكيرٌ بأن حياة الإنسان شبكةٌ من العهود، لا موقفٌ واحد يثبت فيه صدقه ثم يأمن على نفسه الخيانة. قد يكون أميناً في المال، خائناً في الكلمة. وقد يحفظ السر، لكنه يخون المسؤولية العامة حين يقدم قريباً لا يستحق.

الأمانة لا تتجزأ في أصلها الأخلاقي، وإن تعددت مجالاتها.

ومن أخطر الأمانات المناصب؛ لأن الخطأ فيها لا يبقى محصوراً بصاحبه. حين يتولى غير الكفاء أمر الناس، تتحول خيانتته إلى ظلمٍ موزع على آلاف الحيوأت. وقد يتعامل المجتمع مع المنصب كأنه مكافأةٌ أو مصدر مالٍ ومكانة، بينما يراه الوحي حملاً سيُسأل صاحبه عنه.

إن تزكية شخصٍ لمسؤوليةٍ عامة شهادةٌ وأمانة. لا يجوز أن يكون معيارها القرابة أو القبيلة أو الصداقة أو الحب المجرد. فالمحبة لا تصنع الكفاءة، والقرب لا يمنح الأمانة، وكثرة المادحين لا تحول العجز إلى قدرة.

قد تحب إنساناً صادقاً، لكنه لا يصلح لمهمةٍ بعينها. ومن الوفاء له وللناس ألا تدفعه إلى موضعٍ يفسده أو يفسد به.

والأمانة في المعرفة ألا تنسب إلى القرآن ما لا يدل عليه، وألا تستخدم النص لتزيين موقفٍ سبق أن اختاره هواك. فالوحي ليس أداةً في يد المؤلف؛ المؤلف هو الذي يقف مؤتمناً على معناه، يتأمل بحرية القلب، لكن داخل حدود اللغة والسياق والتزييه.

ومن دقة اللفظ القرآني أن الأمر لم يأت بحفظ الأمانة فقط، بل بأدائها. فقد يحفظ الإنسان ما عنده، لكنه يمنعه عن أهله. الحفظ مرحلة، والغاية هي الوصول.

والأمانة الحقيقية تظهر حين تغيب الرقابة. فمن رد الحق لأن القانون يطارده لم تظهر حقيقة معدنه بعد؛ إنما يظهر حين يستطيع الخيانة، ثم يمنعه علمه بأن الله يرى.

﴿الْأَمَانَةُ﴾: كلمة تجعل الضمير حارسًا حين ينام الحراس، وتجعل الإنسان يسأل أمام كل ما في يده: أهو ملكي، أم شيء سأؤديه يومًا إلى أهله؟

الفصل الثالث

﴿الشُّكْرُ﴾: أن ترى النعمة طريقًا لا مرآة

يقول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

لم يقل: قولوا شكرًا، بل قال:

﴿اعْمَلُوا... شُكْرًا﴾.

فاللسان جزءٌ من الشكر، لكنه ليس تمامه. الشكر معرفةٌ بالقلب، وثناءٌ باللسان، واستعمالٌ للنعمة فيما يرضي المنعم. فإذا قال الإنسان: الحمد لله، ثم سخر العطاء في معصيته، فقد ناقض عمله قوله.

إن النعمة تتحول بين يدي الإنسان إلى أحد طريقتين: طريقٌ يقوده إلى الله، أو مرآة لا يرى فيها إلا نفسه. يتأمل ذكاءه فيعجب به، وينظر إلى ماله فينسبه إلى مهارته، ويرى قبول الناس فيظنه حقًا ذاتيًا لا فضلًا من الله.

هنا تُحجب النعمة بصاحبها عن واهيها.

أما الشاكر فيرى نفسه واسطةً لا مصدرًا. يبذل جهده ويعرف قيمته، لكنه يعلم أن الجهد نفسه عطية: من الذي منحه العقل، والفرصة، والصحة، والناس الذين أعانوه، والظرف الذي سمح لعمله أن يثمر؟

الشكر لا يلغي دور الإنسان، بل يمنعه من تأليه دوره.

وفي قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ﴾ توجيةٌ للأسرة كلها؛ فالنعمة العامة تستوجب شكرًا يشارك فيه من انتفع بها. كان ما أوتيهِ داود وسليمان من الملك والعلم

والتسخير واسعًا، فجاء التكليف بقدر السعة: حوّلوا هذه النعم إلى عبادةٍ وعدلٍ وعملٍ.

ليست كثرة النعمة دليلاً على الرضا الإلهي في ذاتها، بل امتحانٌ في طريقة الاستخدام. قد يُعطى الإنسان ليُرى أيُشكر أم يكفر، لا لأن مجرد العطاء شهادةٌ بكماله.

ثم قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾.

لم يقل: الشاكر، بل ﴿الشَّاكِرُونَ﴾، وهي صيغةٌ تدل على المبالغة والثبات؛ الذي تكرر منه الشكر حتى صار وصفًا له. قد يشكر كثيرون عند نعمةٍ طال انتظارها، لكن الشكور يرى النعم التي أفسدتها الألفة فلم يعد الناس ينتهون إليها.

يتنفس، فيشكر.

ويستيقظ، فيشكر.

يجد في قلبه قدرةً على الإيمان، فيعلم أنها أعظم منحة.

ويرى البلاء نفسه، فيشكر الله على ما بقي، وعلى ما دفع، وعلى ما قد يصنعه الألم من تطهيرٍ وقرب، من غير أن يدّعي معرفة الحكمة التفصيلية لكل مصيبة.

والشكر لا يقتضي الصمت عن الظلم أو إنكار الألم. تستطيع أن تشكر الله على نعمه، وتطلب في الوقت نفسه رفع البلاء ورد الحق. فالشكر ليس استسلامًا للفساد، بل بصيرةٌ تمنع الشر الموجود من أن يحجب كل خيرٍ بقي.

وقد وعد الله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ولم يحدد الزيادة في نوع واحد؛ قد يزيد النعمة، أو يزيد بركتها، أو يزيد صاحبها رضا وحكمةً وحسن استعمال.

فأعظم زيادةً قد يمنحك الله إياها ليست أن يكثر ما في يدك، بل أن يطهر قلبك من أن يكون عبدًا له.

﴿الشُّكْرُ﴾: أن تمر النعمة من يدك إلى طاعة الله، بدل أن تقف عند ذاتك فتتحول إلى غرور.

الفصل الرابع

﴿التَّوْبَةُ﴾: العودَةُ التي لا تكتفي بالندم

يقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التوبة رجوع. وهذا يعني أن المعصية ليست مجرد مخالفة منفصلة، بل ابتعادٌ عن الوجهة. قد يظل الإنسان في مكانه بجسده، لكنه بقلبه واختياره أخذ يسير بعيداً عن الله. فإذا تاب، لم يقل فقط: أنا آسف، بل غير الاتجاه.

ولهذا جاءت التوبة مقرونة بحرف الغاية:

﴿إِلَى اللَّهِ﴾.

ليست التوبة عودةً إلى صورة اجتماعية حسنة، ولا خوفاً على السمعة، ولا محاولةً للتخلص من شعور الذنب فحسب؛ إنها عودةً إلى الله. وقد يترك الإنسان المعصية لأن صحته لم تعد تحتملها، أو لأن الفرصة انقطعت، دون أن يعود قلبه إلى ربه.

الامتناع وحده ليس دائماً توبة؛ التوبة حركةٌ في الباطن والظاهر.

تبدأ بإدراك الذنب كما هو، من غير تزيين.

ثم ندمٌ صادق؛ لا لأنه أضر بالصورة فقط، بل لأنه مخالفةٌ لمن أنعم وأمهل وستر.

ثم إقلاعٌ عن الفعل.

ثم عزم على عدم العودة.

وإذا تعلقّت المعصية بحقوق الناس، دخل في التوبة رد الحقوق أو طلب المسامحة على الوجه الذي يرفع المظلمة ولا ينشئ فساداً أكبر.

والعجيب أن الخطاب جاء للمؤمنين: ﴿آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فالإيمان لا يجعل صاحبه مستغنياً عن التوبة؛ بل يجعله أشد إدراكاً لحاجته إليها. كلما ازداد معرفةً بالله، رأى من تقصيره ما كان يخفى عليه.

المشكلة ليست أن يخطئ المؤمن؛ فهو بشر، وإنما أن يبني داخل الخطأ بيتاً ويسمي الإقامة فيه قدراً لا يتغير.

ثم قال: ﴿جَمِيعًا﴾. لا أحد فوق الحاجة إلى الرجوع: العالم والعابد، والحاكم والمحكوم، ومن كان ذنبه ظاهراً ومن أخفى في قلبه كبراً ورياءً وحسدًا لا يعرفه الناس.

التوبة ليست بوابة المبتدئين وحدهم؛ إنها رفيقة الطريق كله.

ومن رحمة الله أنه سعى نفسه التواب. فهو لا يقبل التوبة مرةً واحدة ثم يضيق بعودة عبده، بل يوفق إليها ويقبلها ممن صدق، ولو تكرر منه الذنب والتوبة. ليس في ذلك دعوةً إلى الاستهانة، بل منعٌ لليأس كلما وقعت العثرة.

إن الشيطان يعمل على مرحلتين: يزيّن المعصية قبل وقوعها، ثم يعظمها بعد وقوعها حتى يمنع صاحبها من التوبة. في الأولى يقول: الأمر صغير، وفي الثانية يقول: ذنبك أكبر من أن يُغفر.

والقرآن يرد عليه في المرحلتين: لا تستهن بالذنب، ولا تقنط من الرحمة.

ثم ربط التوبة بالفلاح: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾. لأن الفلاح لا يعني أن تصل إلى الله بلا عثرة، بل أن تعرف الطريق إليه كلما تعثرت.

وقد تكون التوبة من طاعةٍ فاسدة القصد كما تكون من معصيةٍ ظاهرة؛ يتوب الكاتب من طلب الشهرة بكلام الحق، ويتوب الداعية من حبه للانتصار لنفسه، ويتوب المنصف من ظلمٍ مارسه تحت اسم المبدأ.

﴿التَّوْبَةُ﴾: ليست محو صفحةٍ من الماضي فحسب، بل إنقاذ الصفحات التي لم تُكتب بعد.

الفصل الخامس

﴿العَهْدِ﴾: الكلمة التي تمنح الوفاء ذاكرة

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

العهد هو ما يلتزم به الإنسان من وعدٍ وميثاقٍ وحق. وقد سماه القرآن شيئاً ﴿مَسْئُولًا﴾، كأن العهد نفسه سيقف يوم القيامة موضوعاً للسؤال: ماذا فعلتم بي؟ أحفظتموني أم ضيعتموني؟

إن الكلمات في حياة الناس تبدأ خفيفةً على اللسان، ثم تصبح ثقيلةً حين يحين وقت الوفاء. يعد الإنسان وهو متحمس، ويعاهد في لحظة حاجة، ثم تتغير مصطلحته فيبحث عن تفسيرٍ يحرره من كلامه.

لكن العهد لا تتغير حقيقته لمجرد تغير المزاج.

والوفاء هو أن تكون لكلمتك ذاكرة، حتى حين تتمنى نفسك أن تنساها.

في المجتمعات التي تموت فيها العهود، يصبح كل تعاملٍ معركة احتياط. لا يطمئن إنسانٌ إلى وعد، ولا يبني خطته على كلمة، وتُستهلك الطاقات في المراقبة والشك والضمانات؛ لأن الضمير لم يعد ضماناً.

ولهذا لا يكون الوفاء فضيلةً فرديةً فحسب، بل بنيةً من بني العمران. الثقة تختصر المسافات، والخيانة تعقد أبسط العلاقات.

وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾. والرعاية أبلغ من الأداء العابر؛ فهي حفظٌ مستمر، كأن العهد كائنٌ يحتاج إلى حراسةٍ من نسيان النفس وتقلب مصالحها.

ومن أشد العهود مسؤوليةً ما كان مع الله: عهد الإيمان والطاعة. يقول الإنسان: رضيت بالله ربًّا، ثم تأتي الحياة لتختبر معنى الرضا حين يخالف أمر الله هواه. فالعهد لا يُمتحن عند نطقه، بل عند كلفته.

وهناك عهدٌ مكتوبة، وأخرى صنعتها طبيعة العلاقة: حق الأبناء في الرعاية، وحق الزوجية في المعروف، وحق الأمة في أمانة من يتولى شأنها، وحق القارئ في صدق الكاتب. ليست كل المسؤوليات بحاجة إلى عقدٍ ورقي كي تصبح دينًا في العنق.

والوفاء لا يعني الاستمرار في التزامٍ محرم، ولا يمنع تعديل العقود بالتراضي، لكنه يمنع التحايل الذي يلبس الخيانة ثوب الذكاء. قد يجد الإنسان ثغرةً قانونية تخرجه من العقوبة، لكنه لا يجد ثغرةً في علم الله.

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾: عبارةٌ تحول الوعد من صوتٍ تلاشى في الهواء إلى أمانةٍ باقية ستعود يومًا لتسأل صاحبها عنه.

الفصل السادس

﴿التَّوَكَّلْ﴾: أن تعمل بجوارحك وتستند بقلبك إلى الله

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

التوكل ليس انسحابًا من الفعل، ولا انتظارًا كسولًا لما تصنعه الأقدار، وإنما هو أن تستفرغ وسعك في الأخذ بالأسباب، ثم تمنع قلبك من أن يعبدها.

تعمل بيدك، لكنك لا تعتقد أن يدك مستقلة بالنتيجة.

تخطط بعقلك، لكنك لا تظن أن معرفتك أحاطت بكل ما سيقع.

تستعين بالناس، لكنك لا تجعلهم موضع رجائك المطلق.

إنه توازنٌ دقيق بين مسؤولية السعي وطمأنينة التفويض.

وقد جاء الفعل على صيغةٍ تحمل معنى التعمد والاعتماد: ﴿يَتَوَكَّلْ﴾. فالقلب لا ينتقل دائمًا إلى الثقة بالله من غير مجاهدة؛ إذ تتعلق النفس بما تراه، وتميل إلى السبب المحسوس، وتجد صعوبةً في تفويض ما لا تملك ضمانه.

لذلك يحتاج الإنسان أن يرد قلبه إلى الله كلما فرَّ إلى الأسباب.

ثم قال: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾. فالتوكل لا يكون في حقيقته إلا عليه؛ لأن غيره لا يجمع العلم الكامل والقدرة النافذة والحكمة التامة. قد توكل إنسانًا في شأنٍ يقدر عليه، لكن قلبك يعلم أن الوكيل البشري محدود، وأن الله وحده هو الذي لا يعجزه تدبير.

ثم جاءت النتيجة في جملةٍ شديدة الإيجاز:

﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

أي كافيهِ. ولم يحدد وجه الكفاية؛ لتظل الكلمة واسعةً لكل ما تقتضيه حكمة الله. قد يكفيه بأن يعطيه مطلوبه، وقد يصرف عنه ما هو أضر، وقد يؤخر الإجابة حتى يحسن إعدادها، وقد يمنحه من الرضا ما يكون أعظم من تحقق الصورة التي طلبها.

المتوكل لا يشترط على الله أن تأتي الكفاية وفق خريطته، وإلا لم يكن مفوضاً أمره، بل كان يريد من القدرة الإلهية أن تنفذ اختياره هو.

وهذا لا يعني أن كل رغبات المؤمن ستتحقق؛ فالتوكل عبادة، لا وسيلة لإلزام القدر. ثمرته الكبرى أن يكون الله حسب العبد في تدبير شأنه وحفظ دينه وإيصاله إلى الخير الذي يعلمه سبحانه، ولو خالف الخير ظن العبد العاجل.

وقد جمع النبي ﷺ بين أكمل التوكل وأحكم الأخذ بالأسباب. خطط للهجرة، واختار الرفيق، واستأجر الدليل، ورتب وصول الأخبار والطعام، ثم كان قلبه في الغار ممتلئاً بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

لم يقل: ما دام الله معنا فلا حاجة إلى خطة.

ولم يقل: ما دامت الخطة محكمة فقد ضمنا النجاة.

السبب في اليد، والاعتماد في القلب.

ومن خلل الإنسان أنه ينتقل بين طرفين: يترك العمل ويسمي عجزه توكلًا، أو يأخذ بالأسباب حتى ينسى ربه ويسمي تعلقه بها واقعية. أما القرآن فيريده عاملاً غير مغرور، ومطمئنًا غير متواكل.

﴿التَّوَكَّلْ﴾: أن تبذل ما تملك، ثم لا تعتقد أن ما تملك هو الذي يحملك؛ وإنما يحملك الله.

الفصل السابع

﴿الِاسْتِقَامَةُ﴾: أن تبقى الكلمة طريقًا بعد أن كانت إقرارًا

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

بدأت الرحلة بقولٍ عظيم:

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

لكن القرآن لم يجعل القول وحده نهاية الإيمان، بل أتبعه بكلمةٍ تفصل بين
الدعوى والحقيقة:

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

و«ثم» تفتح أمام الكلمة امتداد العمر. فقد يقول الإنسان: ربي الله في لحظة
صفاء، لكن الاستقامة أن تظل هذه الحقيقة حاكمةً حين تتغير الظروف،
وتغريك المصلحة، ويثقل التكليف، ويصبح الوفاء مكلفًا.

إن التوحيد ليس جملةً تُقال ثم تُترك خلف صاحبيها؛ إنه خطٌّ ينبغي للحياة
أن تسير عليه.

والاستقامة من القيام، وفيها معنى الاعتدال والثبات على الطريق من غير
ميل. ليست جمودًا يرفض النمو، بل ثباتٌ على الأصل مع استمرار السير.
فالمستقيم لا يقف؛ إنه يتحرك، لكنه لا يغيّر وجهته كلما لاحت له منفعة.

وما أشد حاجة الإنسان إليها في زمنٍ تتبدل فيه المواقف بتبدل المصالح! قد يبدأ صاحب المبدأ صادقًا، ثم يقنع نفسه بتنازلٍ صغير، ويعقبه آخر، حتى يبقى الاسم القديم ويضيع الطريق كله.

الانحراف الكبير قلَّمَا يبدأ كبيرًا؛ إنه ميلٌ يسير لا يُصحح، ثم تتسع المسافة كلما امتد السير.

ولهذا كانت الاستقامة مراقبةً دائمةً للاتجاه. لا تسأل فقط: هل ما زلت أتحرك؟ بل: إلى أين أخذتني حركتي؟

وقد لا تكون الاستقامة أن تؤدي الأعمال دائمًا بالوهج الشعوري نفسه؛ فالقلوب تقبل وتدبر. إنما أن يبقى العهد قائمًا في زمن الفتور، وألا تجعل ضعفك المؤقت حجةً لترك الطريق.

المستقيم يخطئ، لكنه يعود إلى الخط.

ويضعف، لكنه لا يتخذ ضعفه مذهبًا.

ويتألم، لكنه لا يبيع الحق بحثًا عن راحةٍ قصيرة.

ثم تأتي الثمرة عند أشد اللحظات حاجةً إلى الطمأنينة: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. لا تخافوا مما تستقبلون، ولا تحزنوا على ما تتركون. كأن الاستقامة التي حفظت الاتجاه في الدنيا تستقبلها الطمأنينة عند نهاية الرحلة.

ثم يقال لهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

لم تكن الاستقامة طريقًا دائريًا ينتهي حيث بدأ؛ كانت سيرًا إلى الجنة، حتى لو بدت بعض مراحلها ثقيلة أو موحشة.

﴿اسْتَقَامُوا﴾: كلمةٌ واحدةٌ تختصر عمرًا من العودة إلى الله، وتجعل صدق البداية ظاهرًا في ثبات النهاية.

الفصل الثامن

﴿الذِّكْرُ﴾: أن تظلَّ الحقيقةُ حاضرةً في قلبٍ سريع النسيان

يقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ما أقصر العبارة، وما أعظم المقابلة!

ذكرٌ من عبدٍ ضعيف محدود، يقابله ذكرٌ من رب العالمين:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ولا تشابه بين الذكرين إلا في أصل اللفظ؛ فذكرنا الله عبوديةً وافتقار، وذكر الله لعبده ثناءً ورحمةً وعناية، على الوجه اللائق بجلاله سبحانه.

والذكر أوسع من حركة اللسان، وإن كان اللسان أحد أبوابه. أن تذكر الله هو أن تظل حقيقته حاضرةً في وعيك حين تختار، وتخاف، وترجو، وتغضب. فما أكثر من يسبِّح بلسانه ثم ينسى الله عند المصلحة!

النسيان الأخلاقي ليس غياب المعلومة من العقل، بل غياب أثرها من السلوك. قد يعلم الإنسان أن الله يراه، ثم يتصرف في الخلوة كأنه لا يراه. يعرف أن الرزق بيده، ثم يبيع مبدأه خوفاً من مخلوق. ويوقن أن الآخرة حق، ثم ينفق عمره كله في العاجلة.

هنا يأتي الذكر ليعيد الحقيقة إلى مركز القرار.

وحين يقول القرآن: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فإنه لا يقدم تعويذة صوتية منفصلة عن المعنى. القلب يطمئن حين يستحضر من يذكره: قدرته، ورحمته، وحكمته، ووعدته، وقربه من عبده.

قد يردد اللسان الذكر بينما يظل القلب مستغرقاً في خوفه؛ والمطلوب أن تعبر الكلمة من الفم إلى موضع الاضطراب، فتقول له: الذي أخشاه عبداً لله، والذي أرجوه فضلاً من الله، والذي وقع لم يخرج عن علم الله.

والذكر لا يزيل أسباب الحزن كلها، لكنه يمنعها من أن تحتل القلب كله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. ما أعجب الجزاء! حين نسي الإنسان ربه، لم يريح نفسه، بل فقدوها. لأنه لا يعرف حقيقة ذاته إلا في علاقته بخالقه؛ فإذا قطع هذه الصلة صار يجمع لها ما يهلكها، ويحسب أنه يحسن إليها.

ينسى غايته، فيصير عبداً لوسائله.

وينسى آخرته، فيبيعها بلحظة.

وينسى فقره، فيتضخم حتى يسقط.

فالذكر ليس إضافةً روحيةً إلى حياةٍ مكتملة؛ هو الذي يمنع الحياة من فقدان معناها.

وما أكرم أن يقول الله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾. قد ينساك الناس إذا غبت عن مصالحتهم، وقد تمضي أعمالك الخفية فلا يلتفت إليها أحد؛ لكنك إذا ذكرت الله بإخلاص، ذكرك من لا يضيع عنده عبداً ولا عمل.

﴿الذِّكْرُ﴾: أن تحفظ الحقيقة من غبار الألفة، وأن تحفظ نفسك بالحضور مع الله من أن تتبدد بين شواغل الطريق.

الفصل التاسع

﴿الدُّعَاءُ﴾: اليدُ التي تمتد إلى ما وراء الأسباب

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

الدعاء اعترافٌ عملي بأن عالم الإنسان أضيق من حاجاته. ثمة أشياء يستطيع أن يبلغها بسعيه، وأشياء يقف أمامها عاجزاً؛ مرضٌ لا يملك شفاءه، وقلبٌ لا يملك هدايته، ومستقبلٌ لا يعرف خباياه، ومصيبةٌ لا يستطيع وحده حملها.

في تلك المسافة بين ما يحتاجه وما يقدر عليه، يفتح الدعاء طريقاً إلى الله.

﴿ادْعُونِي﴾.

لم يقل: ادعوا من يفتح لكم بابي، بل أضاف الدعاء إلى نفسه مباشرة. لا وسيط يحجب العبد عن ربه، ولا مكان يضيق عن المناجاة، ولا لغةٌ مخصوصة يشترطها القرب. قد لا يحسن الإنسان ترتيب عبارته، لكن الله يعلم الحاجة قبل أن يكتمل وصفها.

ثم قال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

والاستجابة حق، لكنها تجري بعلم الله وحكمته، لا وفق استعجال العبد وصورته المحدودة للخير. قد يعطيه ما سأل، أو يدفع عنه من السوء مثله، أو يدخر له ثوابه؛ كما جاءت بذلك السنة. وليس تأخر المطلوب دليلاً على أن الدعاء ضاع.

فالدعاء ليس أمرًا يصدره الإنسان إلى القدر؛ إنه عبادةٌ يفوض بها أمره إلى من يعلم ما يصلحه.

قد يسأل العبد شيئًا يراه رحمة، ويعلم الله أن وراءه فتنة. وقد يستبطئ بآبًا، بينما تهيئه السنون لما وراءه. وما أضيق رجاءنا حين نحصر الإجابة في شكلٍ واحد!

والدعاء لا يناقض العمل؛ بل يمنحه روحه. تدعو بالرزق ثم تسعى، وبالشفاء ثم تتداوى، وبالنصر ثم تعد القوة. فالذي أمر بالدعاء هو الذي أمر بالأخذ بالأسباب.

لكن الدعاء يحمي الساعي من غروره. يذكره أن البذرة لا تنبت لمجرد أنه وضعها في الأرض، وأن النتائج لا تدخل في ملكه مهما أحكم المقدمات.

ومن جزالة كلمة ﴿ادْعُونِي﴾ أنها تجمع الطلب والعبادة والقرب والافتقار. قد يدعو الإنسان بلسانه طلبًا لشيء، لكن قلبه في أثناء الدعاء يتعلم من هو: عبدٌ لا يستغني، أمام ربٍّ لا يعجز.

وربما كانت أعظم عطايا الدعاء ما يصنعه في الداعي قبل تحقق المدعو به؛ يخفف وحشته، ويمنحه مكانًا يضع فيه خوفه، ويعيد ترتيب رغباته تحت حكمة الله.

كم من دعاءٍ بدأ بطلب تغيير الواقع، وانتهى بتغيير صاحبه!

دخل الإنسان إليه وهو يريد العطاء، وخرج وهو يريد الله.

﴿الدُّعَاءُ﴾: وسيلةٌ ينفذُ بها الإنسانُ إلى ما لا يمكنه بلوغه، لكنه قبل ذلك مقامٌ يعرف فيه أن عجزه ليس جدارًا ما دام وراءه باب الله.

الفصل العاشر

﴿الإِخْلَاصُ﴾: أن ينجو العملُ من حضور صاحبه فيه

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

الخالص هو ما صفا من الشوائب، فلم يخالطه ما يفسد حقيقته. والإخلاص أن يتوجه القلب بعبادته وعمله إلى الله، فلا يجعل رضاه درجةً في سلم الوصول إلى رضا الناس.

وما أدق هذه العبادة؛ لأن الشرك الظاهر قد يعرفه الإنسان فيجتنبه، أما حظوظ النفس فتدخل أحياناً في ثياب الخير. يكتب للحق، ثم يفرحه الثناء حتى يصبح هو الغاية المستترة. وينصح، لكنه يريد أن ينتصر رأيه. ويتواضع، ثم يراقب إعجاب الناس بتواضعه.

إن النفس تستطيع أن تصنع من العبادة مرآةً ترى فيها عظمتها.

ولهذا كان الإخلاص عملاً مستمرّاً، لا نيةً تُراجع في البداية مرةً ثم تُترك. قد يبدأ العمل لله، ثم تزاحمه رغبة الشهرة في منتصف الطريق، فيحتاج صاحبه أن يعيد قلبه إلى وجهته.

وليس الإخلاص أن يكره الإنسان ثناء الناس بطبيعته، أو ألا يفرح بالقبول الحسن؛ فهذا مما تجده النفس. إنما ألا يعمل من أجله، وألا يغير الحق ليستبقيه، وألا ينهار إذا حُرِم منه ما دام يعلم أن الله قبل صدقه.

المخلص لا يستمد قيمة عمله من عدد الناظرين إليه. قد يكتب صفحةً لا يقرأها إلا قليل، لكنها عند الله أثقل من كتابٍ كُتب ليقال عن صاحبه ما يحب.

إن الله لا ينظر إلى ضخامة الصورة وحدها، بل إلى القلب الذي أقامها. والعمل الصغير يكبر بالنية، والعمل الكبير قد يأكله الرياء حتى لا يبقى منه صاحبه إلا ما أخذه من إعجاب الناس في الدنيا.

لكن الإخلاص لا يبرر ضعف العمل ورداءته. أن تقول: نيتي طيبة، ثم تهمل الإتيان، ليس إخلاصًا؛ فالذي تعمل له هو الله، ومن تعظيمه أن تقدم ما استطعت من الحسن. النية الصادقة تستدعي الإحسان، ولا تستعمل لستر الكسل.

والإخلاص يحرر صاحبه من تقلب الجمهور. الناس يمدحون اليوم ما يذمونه غدًا، ويرفعون شخصًا ثم ينصرفون عنه. فإذا جعلهم الإنسان قبلته، عاش موزعًا بين أهوائهم.

أما إذا كان وجهه لله، استفاد من النقد الصادق، وشكر الثناء من غير أن يسكن إليه، ومضى حين لا يرى أثرًا عاجلاً؛ لأن الله لا يضيع عمل المصلحين.

﴿الْخَالِصُ﴾: كلمةٌ تغسل العمل من ضجيج صاحبه، حتى يبقى فيه من الله ما يستحق البقاء.

الفصل الحادي عشر

﴿الْيَقِينُ﴾: الحقيقة حين تستقر حتى تحمل صاحبها

يقول الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

لم يقل: وهم بالآخرة يعلمون؛ فالعلم قد يبقى فكرةً في الذهن لا تغير ترتيب الحياة. أما اليقين فهو علمٌ استقر حتى صار قوةً تحمل الإرادة وتعيد تشكيل الاختيار.

كل مسلم يعلم أن الآخرة حق، لكن السؤال: ما مقدار حضور هذه الحقيقة في ميزانه اليومي؟

هل تمنعه من ظلمٍ يقدر عليه؟

هل تهوّن عليه فوات حظٍّ من الدنيا؟

هل تجعله يصبر على الحق حين لا يرى ثمرته؟

هنا يظهر الفرق بين معلومة الآخرة ويقين الآخرة.

وقد قدّم الجار والمجرور: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾، ثم جاء بضمير الفصل: ﴿هُمْ﴾، تأكيداً لعنايتهم بهذا اليقين وتميزهم به. فالآخرة ليست فصلاً أخيراً في عقيدتهم، بل مركزٌ يعيد تفسير الفصول كلها.

المصيبة في ضوء الدنيا خسارة.

وفي ضوء الآخرة امتحانٌ وأجرٌ محتمل.

والتضحية في حساب العاجلة نقص.

وفي حساب الأبدية تقديم.

وانتصار الظالم في اللحظة واقع مؤلم.

لكن اليقين بالآخرة يمنع اللحظة من أن تصبح حكمًا نهائيًا على الحق والباطل.

إن اليقين لا يعني معرفة تفصيل القدر، ولا أن المؤمن لا يتردد في المسائل الاجتهادية؛ وإنما أن الحقائق التي أخبر الله بها صارت في قلبه أثبت من تقلب المشاهد.

يرى الموت يمر، لكنه لا يراه فناءً.

ويرى القبر، لكنه لا يراه خاتمة.

ويرى العمل الخفي، لكنه لا يراه ضائعًا.

وحين يستقر اليقين، تهون مصائب الدنيا لا لأنها بلا ألم، بل لأنها لم تعد العالم كله. إن الذي يرى الأبدية لا يمنح اللحظة حق سحقه.

لكن اليقين لا يولد كاملاً في القلب بلا غذاء. ينمو بالقرآن، والنظر في آيات الله، وصدق العبادة، وتجارب التوكل، ومجاهدة الشكوك والأهواء. وكلما رأى العبد صدق وعد الله في موضع، ازداد معرفةً به في مواضع لم تنكشف بعد.

﴿الْيَقِينُ﴾: أن تنتقل الحقيقة من شيءٍ تحمله في ذهنك إلى شيءٍ يحملك حين تضعف.

الفصل الثاني عشر

﴿الْعُبُودِيَّةُ﴾: الكلمة التي يكتمل بها تحرر الإنسان

يقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، ويقول في أشرف رحلة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾.

لم يصف الله رسوله ﷺ في هذين المقامين العظيمين بألقاب الملك والزعامة، بل وصفه بالعبودية:

﴿عَبْدِهِ﴾.

في مقام إنزال الكتاب: عبده.

وفي مقام الإسرائاء: عبده.

كأن أعلى ما يرتفع إليه الإنسان أن يتحقق بحقيقة العبودية لله.

وقد يتوهم من لا يعرف القرآن أن العبودية نقص؛ لأنه يقيسها بعبودية البشر للبشر، وهي إذلالٌ واستغلال. أما العبودية لله فهي غاية التحرر؛ لأن من عبد الله وحده تحرر من عبادة هواه، ومن الخضوع الباطني للناس، ومن تأليه المال والمكانة والقوة.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا غايةٍ عليا تستولي على قلبه. فإذا لم يعبد الله، عبد شيئاً دونه ولو لم يسمه إلهاً. قد يعبد صورته في أعين الناس، فيبيع نفسه لرضاهم. وقد يعبد المال، فيقيس به الأشياء. وقد يعبد الجماعة، فيرى الحق ما قالته والباطل ما خالفها.

والعبودية لله تكسر هذه الآلهة الخفية.

إنها ليست صلاةً وصيامًا فحسب، وإن كانا من أعظم شعائرها؛ إنها أن يصير الله مرجع الحب والخوف والرجاء والطاعة، وأن يدخل أمره في خيارات الإنسان كلها.

العبد لا يسأل فقط: ماذا أريد؟

بل: ماذا يريد الله مني؟

ولا يزن الموقف كله بما يربحه عاجلاً، بل بما يحقق رضاه سبحانه.

وفي الإضافة: ﴿عَبْدِهِ﴾ تكريمٌ وقرب. فالذي رضي أن يكون عبدًا لله نسبه الله إليه في أشرف المقامات. ليست العبودية محوًا لكرامة الإنسان، بل مصدرها؛ لأنه لم يعد تابعًا لمخلوقٍ مثله.

والعبودية تجمع الفقر والحب والتعظيم. قد يطيع الإنسان قانونًا خوفًا، لكنه لا يحبه. أما المؤمن فيعبد الله لأنه يعظمه ويحبه ويرجوه ويعلم فقره إليه.

ومن هنا تكون الطاعة حياةً لا حركةً جوفاء. يسجد الجسد، ويسجد معه القلب؛ فلا تكون الجبهة في الأرض والروح واقفةً أمام صنم الذات.

إن اكتمال الإنسان ليس في أن يستغني عن كل أحد؛ فهذا وهم. اكتماله في أن يعرف لمن يكون افتقاره المطلق، فلا يضعه في غير موضعه.

﴿الْعُبُودِيَّةُ﴾: أن تختار الانحناء لله، فتستطيع أن تقف مستقيمًا أمام كل ما

سواه.

خاتمة الكتاب

حين تعود الكلمة إلى القلب

بدأت رحلتنا من سؤالٍ يبدو لغويًا: كيف تكون الكلمة القرآنية رشيقةً في لفظها، جزلةً في معناها؟

لكننا كلما اقتربنا من الكلمات اتضح أن السؤال ليس عن اللغة وحدها؛ بل عن الإنسان الذي تصنعه اللغة حين تكون وحيًا.

رأينا كلمةً مثل ﴿آنَسْتُ﴾ تحمل وحشة المسافر ورجاءه، و﴿فَأَسْرَهَا﴾ تحمل أخلاق الألم حين يرفض أن يتحول إلى انتقام، و﴿لَا تَثْرِيْبَ﴾ تمحو تاريخًا من الإساءة دون أن تنكر وقوعه.

وسمعنا السقوط في ﴿فَكُبْكِبُوا﴾، والإطباق في ﴿دَمْدَمَ﴾، وحركة الأرض في ﴿زُلْزِلَتْ﴾، وانفراج الضوء في ﴿تَنَفَّسَ﴾. فالحروف لم تكن أصواتًا محايدة؛ كانت تسهم في إدخال المشهد إلى النفس، من غير تكلفٍ يفصل الصوت عن أصل اللغة والسياق.

ثم دخلنا إلى كلماتٍ صغيرة حملت عوالم كاملة: الصمد، والسكينة، والفلاح، والخسر، والنور، والفرقان، والتقوى، والرحمة. واكتشفنا أن بعض الألفاظ لا تعطي الإنسان معنىً جزيئًا، بل تعيد بناء رؤيته لله ولنفسه وللحياة.

وتعلمنا من الحذف أن الصمت قد يكون من تمام البيان. في قوله: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ اتسع الهول لما لم يُذكر. وفي قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا﴾ توقفت العبارة عند

ذروة التسليم، فجاء النداء رحمةً تسبق السكين. وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ تُرك الجواب؛ لأن كل عبارة أضيق من المشهد.

ثم رأينا الكلمة وهي تدخل إلى القلب، فلا تلغي واقعه، بل تعيد ترتيب معناه:

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَمِيعِينَ﴾.

لم يختف الغار، ولم يزل فرعون، ولم ينشق البحر قبل كلمة اليقين؛ لكن القلب لم يعد يقرأ المشهد وحده. دخل الله في حسابه . وهو سبحانه كان المدبر قبل أن ينتبه القلب. فعادت المخاوف إلى أحجامها.

ووقفنا أمام كلمات القيامة، فإذا اللفظة القصيرة تحمل عالماً ينهار: ﴿أَزِفَتْ﴾ تقرب النهاية، و﴿بَرَزُوا﴾ تسقط المخائب، و﴿خَشَعَتِ﴾ تسكت ضجيج التاريخ، و﴿بُعْثِرَ﴾ تقلب القبور، و﴿خُصِّلَ﴾ تستخرج الأسرار.

ثم انتهينا إلى أن الكلمة القرآنية لا تريد أن تبقى موضوعاً للإعجاب. تريد أن تصبح عدلاً في الحكم، وأمانةً في المسؤولية، وشكراً في استعمال النعمة، وتوبةً بعد العثرة، وعهداً لا تنساه المصلحة، وتوكلاً لا يلغي العمل، واستقامة تحفظ الطريق، وإخلاصاً يحرر العمل من عبودية الجمهور.

وهنا يظهر الفرق بين من يقرأ جمال القرآن ومن يدع القرآن يجمّل حياته.

قد يدهشك نظم كلمة ﴿الْعَدْلُ﴾، ثم تختبر حقيقتها حين يكون الحق على قريبك.

وقد تتأمل ﴿الْأَمَانَةَ﴾، ثم يظهر إيمانك بها حين تقع في يدك مصلحة تستطيع الاستئثار بها.

وقد تكتب عن ﴿الإِخْلَاصِ﴾ بأجمل عبارة، ثم يمتحن قلبك حين يمر عملك بلا ثناء.

فالقرآن لا يريد قارئاً يقف أمام مرآة جماله ثم يعود كما كان. إنه يريد أن يعيد ترتيب الروح، حتى تصبح الكلمة خُلُقًا، والمعنى موقعًا، والبيان حياة.

لقد كانت رِشَاقَةُ اللفظ في هذا الكتاب طريقًا إلى جزالة الحقيقة. فالكلمة القرآنية لا تتضخم لتبدو عظيمة؛ عظمتها مستقرّة فيها، ولذلك تستطيع أن تأتي خفيفةً بلا ضعف، موجزةً بلا نقص، جميلةً بلا زخرفٍ زائد.

إنها كالمفتاح: صغيرٌ في اليد، لكنه يفتح بابًا أكبر منه.

وكالبذرة: تكاد تضيع بين الأصابع، لكنها تحمل شجرةً كاملة في سرها.

وكالقطرة: محدودةٌ في صورتها، غير أن مذاقها يدل على البحر الذي جاءت منه.

ولا تنقضي عجائب القرآن لأن الكلمات نفسها تتجدد في القلوب بتجدد أحوالها، دون أن تنفلت عن معانيها الصحيحة. يقرأ الحزين ﴿لَا تَحْزَنْ﴾

فيجدها تنزل على موضعٍ لم يكن حاضراً فيه يوم قرأها مطمئناً. وقرأ الخائف ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فتنقل من محفوظٍ على اللسان إلى حصنٍ في القلب. وقرأ المذنب ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ فيشعر أن الآية تعرف الطريق إلى سجنه الداخلي.

فالمتغير ليس كلام الله، بل حاجتنا التي تكشف لنا في كل مرة وجهًا من عطائه.

وهكذا لا تنتهي رحلة الكلمة عند تفسيرها، بل تبدأ منه. نعرف معناها في اللسان، ثم نرى موضعها في النظم، ونصغي إلى جرسها، ونستشعر صورتها، ونردها إلى هدايتها، ثم نسأل:

ما الذي تريد هذه الكلمة أن تغيّره فينا؟

إذا بلغنا هذا السؤال، لم نعد خارج النص نتأمله من بعيد؛ لقد صار النص يتأملنا، ويكشف مواضع الخلل فينا، ويعيد أسماء الأشياء إلى حقيقتها.

وذلك هو القرآن: لا يمنح اللغة جمالها الأعلى فحسب، بل يمنح الإنسان إمكان أن يعود بها إلى معناه الأعلى.

فطوبى لمن مرّت الكلمة على لسانه، ثم لم تمض؛ بل بقيت في قلبه حتى صار هو بعض أثرها.